راشد الغنوشي

آفاق الغد

من الفكر الإسلامي في تونس

(٢)

دار القلم
كويت

٤

سبق نشر هذه الحلقة بعنوان حركة الاتجاه الإسلامي فى تونس - ضمن هذه السلسلة - وكان ذلك اجتهاداً من الناشر .

وقد تم تعديل العنوان بناء على رغبة المؤلف

* * *

* *

*

• مَا هُو التخلف وكيف الخروج منه ؟•

موضوع التخلف من المواضيع الهامة جداً والتي طالما وقع الخوض فيه ولقد سار الناس على أن كل فن يتحدث فيه ذو الاختصاص فالاقتصاد يتحدث فيه الاقتصاديون والتربية يخوض فيها أهل الذكر ، والثقافة والتجارة وسائر مجالات الحياة لكل مجال أهل الاختصاص فيه .

موضوع التخلف من هذه المواضيع التي سرنا على القول بأن هناك أقواماً اختصوا بها .

وبقدر ما يبدو هذا الرأي سليما بقدر ما يحتاج إلى تصحيح ، فإذا كان في كل جانب من جوانب الحياة (الاقتصاد – التربية – السياسة الخ ...) مجال لأهل الاختصاص فإن في كل جانب من جوانب الحياة قدر عام يتعلق بكل انسان ينتمي لذلك المجتمع .

هناك قدر مشترك ينبغي أن يشارك فيه الناس جميعا ، فالاتجاه العام للأمة لا يحدده شخص واحد أو عدد محدود من الأشخاص ، ولكن ينبغي أن يشارك الجميع في وضعه سواء في مجال التربية أو الاقتصاد أو

• مجلة المعرفة التونسية عدد ٨ وعدد ٩ س ١٩٧٣

السياسة ، ذلك أن الاتجاه العام للأمة هو في الواقع صورة للأمة ولشخصيتها ولأهدافها وكل إنسان مدعو أن يساهم في وضع الاتجاه العام .

وإني سوف أتحدث عن موضوع التخلف لا باعتباري خبيراً اقتصادياً ، ولكني سوف اتحدث عنه من خلال القدر المشترك الذي يساهم في تحديد شخصية أمتنا وللخبراء في الاقتصاد بعد ذلك ضمن الاتجاه العام أن يقولوا كلمتهم .

مظهر أول من مظاهر التخلف

لعل أول مظاهر التخلف هو وجود كلمات كثيرة وأساسية في حياة الأمة غير محددة المعنى حتى لكأن كل واحد منا أصبح له قاموس خاص . بل وإن في كثير من الأحيان نستعمل كلمات أساسية دون أن يكون لها في الذهن أي معنى ! وكثير من المناقشات التي تدور بين الناس وتؤدي إلى خلافات حادة مصدرها تلك الألفاظ الأساسية التي لم تحدد معانيها تحديدا واضحا كافيا ، ولو طالبنا كل مناقش أن يحدد معاني الألفاظ التي يستعملها لوجدنا في كثير من الحالات أنه ليس بين المتناقشين من يعي ذلك وفي مناقشات أخرى نجد كل المتناقشين عاجزين عن تحديد الألفاظ التي يستعملونها .

من جملة هذه الألفاظ : التقدمية – الرجعية – اليسار – اليمين – الاشتراكية – الحرية – الإنسان – الخ ...

ولذلك من الأولى في كل نقاش وقبل أن نخوض فيه أن نحدد مجموعة ألفاظ سوف يقع استعمالها حتى لا ندخل في متاهة الألفاظ .

ما معنى التخلف ؟

التخلف كلمة لا تفهم وحدها . فهي كلمة نسبية ، ذلك أنها لا تفهم إلا بكلمة أخرى : تخلف عن ، نقول تخلف الركب عن الجماعة . إذا قلنا نحن متخلفون فقد نسينا أن نذكر عمن نحن متخلفون ؟ فالتخلف لا يفهم إلا إذا عرفنا ما هو التقدم ، فهناك في التخلف هدف متقدم نحن متخلفون بالنسبة إليه .

ومن هم الذين نرى أنفسنا قد تخلفنا عنهم اليوم ؟ الجواب واضح . نحن متخلفون عن الغرب ، فالهدف إذن هو الغرب سواء حددناه بالألفاظ أو لم نحدده ، هناك إذن هدف ينبغي أن نصل إليه ولكننا متخلفون عنه .

هذه مسألة أولى كان لا بد من توضيحها ، لأن الاعتقاد بأن المثال الأعلى لمجموعة ما ليس ضمن ثقافتها وتراثها وانما هو متوفر لدى أمة أخرى ، مثل هذا الاعتقاد مظهر من مظاهر التخلف .

فشعور أي مجموعة بأنها دون الآخرين وأن عليها أن تسير نحو الأمم الأخرى ونحو أهدافها مثل هذا الشعور مظهر من مظاهر الانحطاط .

والآن ننتقل إلى ضرورة وجود مقياس نميز به التخلف والتقدم فإذا كانت لنا مقاييس نعرف بها إذا كان الجو حاراً أو بارداً

ونعرف بها الجسم الثقيل من الخفيف فهل لدينا مقياس نعرف به التخلف والتقدم ؟

تونس متقدمة عن الاتحاد السوفياتي ...!

استجوبت إحدى الجرائد التونسية خبيراً سوفياتياً أثر فشل تجربة التعاضد وسألت الخبير عن مستوى التقدم في تونس فأجاب أن مسألة التقدم مسألة نسبية ولا بد من مقياس ، فإذا اعتبرنا مثلاً أن عدد السيارات بالنسبة لعدد السكان هو المقياس قلنا بأن تونس متقدمة عن الاتحاد السوفياتي ، لأن نسبة السيارات في تونس (بالنسبة لعدد السكان) أكثر من نسبة السيارات في الاتحاد السوفياتي (بالنسبة لعدد سكانه) .. فالاتحاد السوفياتي متخلف عن تونس .. في هذه الناحية .

إن مثل هذه النتيجة تدل إلى أي حد يكون أمر المقياس خطيراً لتحديد التقدم والتخلف .

إن المقياس المستعمل عادة عند الاقتصاديين هو مستوى الدخل الفردي ، والأمم المتحدة تقدم قائمة لمستوى الدخل الفردي في كل البلاد وفي قمة هذه القائمة تأتي الكويت وفي نهايتها تأتي اندونيسيا وتحتل الولايات المتحدة المكانة الثانية بعد الكويت ذلك أن مستوى الدخل في الولايات المتحدة ٣٠٢٠ دولار بالنسبة للفرد بينما هو في الكويت ٣٤٠٠ دولاراً بالنسبة لكل فرد .

فهل نستطيع أن نقول أن الكويت أكثر تقدماً من الولايات

المتحدة والمانيا والسويد ؟ إذا جعلنا مستوى الدخل الفردي هو المقياس اضطررنا للقول بأن هذه الدول متخلفة عن الكويت .

واضطررنا كذلك للقول بأن امارات الخليج وكذلك المملكة السعودية أكثر تقدما من عدد من الدول الأوربية الكبرى .

ومن أجل الوصول إلى مقياس واضح وسليم نقول : لنتصور أن الولايات المتحدة قطعت كل علاقاتها مع الخارج فما الذي سوف يحصل من هذه القطيعة ؟

إن مستوى الدخل في الولايات المتحدة سوف يتضرر بقدر ٥٪ لأن هذا الرقم هو ما تمثله التجارة الخارجية في الولايات المتحدة .

ولنتصور حدوث قطيعة بين الكويت وبين الخارج فما هو الضرر الذي يترتب بالنسبة للدخل الفردي في الكويت ؟

يتحول مستوى الدخل تقريبا إلى الصفر ! هذا كل ما في الأمر فالاقتصاد الكويتي يتضرر بنسبة ١٠٠ في المائة لأنها تعيش على حساب غيرها وأمرها متعلق تعلقاً كاملاً بالخارج ، بينما البلاد الأوربية والاتحاد السوفياتي علاقاتهما بالخارج نسبية وقطع العلاقات مع الخارج لا تحدث إلا إضراراً نسبية .

فالاعتماد إذن على مقياس المستوى الفردي لا يكفي ، لأننا رأينا أن تكديس الأموال في بلاد من البلدان لا يعني التقدم ، وبعض هذه البلدان لا تعرف ماذا تفعل بهذه الأموال حتى أن بعض الإحصائيات

تذكر أن السعودية في سنة ١٩٨٠ سيكون لديها من الدولارات الأمريكية أكثر مما لدى الخزينة الأمريكية نفسها، ولكن أي انقطاع عن الخارج سوف يودي بالاقتصاد السعودي رغم هذا المال الجم .

دائرة مفرغة :

ولقد ولّد مقياس « الدخل الفردي » عند البلاد المتخلفة أمرا يمكن اعتباره من مظاهر التخلف ، هذا الأمر هو الاعتقاد من ناحية بأنه : لا بد لنا من الحصول على المال للتقدم ومن ناحية ثانية فإن التقدم هو الحصول على كميات من المال ، فالتقدم عند كثيرين هو المال الوفير ولا يمكن الوصول إلى التقدم إلا بالمال ، وهذه الدائرة المفرغة فيها مغالطة واضحة ، لأنه توجد بلدان لها مال كثير ولكنها متخلفة (لأنها تعتمد كليا على غيرها) وبلاد أخرى انطلقت في تقدمها من الصفر والأمثلة عديدة :

- في المانيا بعد الحربين العالميتين كان الانطلاق من الصفر حتى أن السكك الحديدية اقتلعت ولكنها مع ذلك انطلقت من جديد والدولار الامريكي الآن تحت رحمة المارك الألماني الذي هزم مرتين .
- والصين واليابان مثالان آخران يؤكدان أن الانطلاق والتقدم لا يعتمدان على وفرة المال .

والغريب أن البلاد التي تسعى للنمو ، تريد أن تجعل أساس نموها المال بينما لا تملك منه شيئا لذلك فهي مضطرة أن تصبح تحت رحمة

البلاد الأوربية التي تملك المال وكيف يمكن للبلاد الأوربية ولبنوكها أن تسهل المال والنمو في حين انها تعيش على حساب تخلف تلك البلاد ؟

لذلك نلاحظ أن هذه البلاد الأوربية لا تسهل – ولا يمكن أن تسهل – المشاريع الانتاجية التي تضمن استقلالا حقيقيا وإنما تقصر أموالها على كل ما يزيد تبعية البلاد المتخلفة للبلاد الأوربية. إنها دائرة مفرغة أخرى يقع فيها كثير من البلاد المتخلفة فمن ناحية تعتمد هذه البلاد على البلاد المتقدمة في برامج نموها ، ومن ناحية أخرى يكون تقدم البلاد المتخلفة هزيمة للبلاد المتقدمة وبداية لتخلفها .

فحتمي أن يضمن الأوربي بقاء تقدمه أي بقاء تخلفنا لذلك فإن كل المساعدات التي يبذلها الأوربي سوف تساهم مساهمة فعلية في زيادة التبعية والارتباط .

شعوب مصابة بأمراض الطفولة :

والوقوع في هذا العجز وفي مثل هذه الدائرة المفرغة راجع إلى أن عددا من البلاد المتخلفة مصابة بمرض الطفولة فالشعوب أحياناً تصبح كالأطفال معتقدة أنها لا تقدر على حل أي مشكل من مشاكلها إلا بالاعتماد على الكبار .

ونحن كثيراً ما نسمع كلاماً من مسئول عربي يتحدث عن قضية من قضايا العرب (فلسطين مثلاً) قائلاً : أناشد الدول الكبرى أن تتدخل لحسم النزاع ، نستطيع أن نضع هذه الجملة في فم طفل صغير

يتحدث عن مشكلة وعن ضرورة اللجوء إلى الكبار لحل المشكلة .

فالتخلف إذن من مظاهره – العجز والاتكال – فالدول الكبرى هي وحدها القادرة على حل كل مشاكلنا .

كذلك وفي نفس هذا المجال نجد أن الشعوب المتخلفة – كالأطفال – يصيبها كما هو الحال عند الأطفال – داء اسمه السهولة . فهي تريد أن تحل مشاكلها دون بذل أي جهد أو عناء أو تضحية ، المتخلف يعتقد أنه يمكن أن يتقدم بطريق سهل – ومن مظاهر هذه الظاهرة الانقلابات ، فمجرد انقلاب يمكننا من دخول العالم المتقدم ، هذا هو مرض السهولة .

مظهر آخر من مظاهر التخلف سائد ولعله نابع من مرض السهولة هذا ، يتمثل في الاعتقاد بأن الخروج من التخلف يكون باستيراد بعض الآلات وتشجيع التقنية في المدارس ، غير أن مجرد خلل يحصل لآلة بسيطة يوقفها فترة طويلة عن العمل في انتظار قدوم المهندس الذي صممها والذي يعرف وحده كيف يمكن اصلاحها .

من نتائج مرض السهولة هذا : الاعتقاد أن الإنقاص من السكان سواء بتحديد النسل أو بتهجير اليد العاملة إلى الخارج سوف يرتفع بمستوى الدخل الفردي وتنتهي المشكلة ، هكذا بكل سهولة .

من مظاهر السهولة الاعتماد على السياحة في البلاد المتخلفة وينسى كثيرون أن الاعتماد على السواح أمر في غاية الخطورة ذلك أن استسلام الاقتصاد الوطني في أي بلاد إلى عامل من العوامل التي

ليست تحت تصرف الوطن نفسه يعرض تلك البلاد إلى هزات عنيفة للغاية. فإن دخول السواح سوف يرفع من مستوى الدخل الفردي ... بكل سهولة .. لكن غياب هذا العامل الاقتصادي الأساسي لأمر من الأمور (منافسة خارجية – وباء – الخ ...) يدفع الدخل الفردي إلى الانهيار .

نضيف إلى هذا ونتيجة لنفس هذا المرض (مرض السهولة) مظهر المطالبة بالحقوق – فهذا يطالب بحق الزيادة في الأجر والآخر بحق الراحة والآخر بحق كذا وكذا ، الجميع يتحدثون عن حقوقهم ولكنهم قليلو الحديث عن الواجبات .

من حق العامل كذا ... من حق الموظف كذا ... من حق الأستاذ والفلاح و ... و ... أما الواجبات فلا حديث عنها ، فالحقوق يجب أن تتم بطريقة سحرية دون أي بذل أو تعب ودون أي واجب . على نقيض عقلية السهولة هناك (ومن مظاهر التخلف) عقلية الاستحالة وهي الاعتقاد بأننا لن نتقدم ولن نتغلب على أمراضنا المختلفة ، عند هذه العقلية ليس هناك أسهل من كلمة مستحيل – مستحيل أن نصبح أمة قائدة ، مستحيل أن ننتصر على اسرائيل مستحيل أن نحقق عدالة اجتماعية ، مستحيل أن يعود الإسلام ، مستحيل .... بينما يقول أحد المفكرين – إن التقدم يكون يوم نعتقد أن المستحيل أصبح ممكنا .

ولقد نتج عن هذا المرض – الاستحالة – الاعتقاد بأنه ليس بالإمكان أحسن مما كان – فلقد استقر عند أقوام كثيرة أن الفكر

البشري انتهى إلى غاية لا يمكن أن نأتي بعدها بجديد – في عالم الاقتصاد توجد نظريتان – الماركسية والرأسمالية – هل يمكن أن يوجد حل ثالث ؟ مستحيل ، ليس هناك إلا طريقان إما أن نكون رأسماليين فتستباح كرامة الإنسان من أجل الحصول على المال وتستباح حقوق الشعوب ، وإما أن نكون ماركسيين نحصل على الخبز وأما حرية الإنسان وقيمه الأخلاقية فهي أمور لا معنى لها ، الإنسان لا يعدو أن يكون زرا في آلة كبيرة منتجة .

ما هو التخلف ؟

فمظاهر التخلف كثيرة إذن كما رأينا ولكن يمكن أن نقول إنها محددة بين ظاهرتين كبيرتين ، ظاهرة السهولة العاجزة وظاهرة الاستحالة اليائسة .

والتخلف بناء على هذا ليس رقما يعين الدخل الفردي في أمة من الأمم ، ليس التخلف هو قلة في المال وليس قلة في المصانع والآلات .

والتخلف هو قبل كل هذا عقلية عاجزة ، عقلية لا تبدع ولكنها تتكل في جميع شئونها على غيرها ، عقلية جفت الآمال فيها ترى الحياة سهلة ، وترى أن الغايات الكبرى مقصورة على الآخرين ، فالآخرون يصنعون الحضارة ويقودون العالم ، أما هي – تلك الأمة المتخلفة – فلا حق لها في ذلك .

التخلف إذن عقلية وليست قلة في المصانع والأموال والدخل

كيف الخروج من التخلف ؟

كل أمة تتمتع بثلاثة عوامل تُحَقِّقُ لها التقدم إذ هي أركانه الأساسية ، هذه العوامل هي :

١) الأرض .
٢) البشر .
٣) الزمن .

ونلاحظ أن جميع الأمم تملك هذه العوامل الضرورية لأي تقدم في أي زمن[١] .

في اليابان أرض لها موارد معينة وكذلك في أمريكا وروسيا . وفي هذه البلدان يوجد عدد معين من الساعات في اليوم لا يختلف عنه في البلد الآخر .

فلماذا وجد تقدم في هذه البلدان ولم يوجد عندنا ؟

إن العامل البشري هو الذي تغير ، عقلية الإنسان في تلك البلدان غيرها في بلادنا ، إن العقلية التي عندنا اليوم تصيب الإنسان بالعُقْم فيعتقد في الحلول السهلة ويتكاسل عن كل تقدم .

فمشكل الخروج من التخلف هو أولاً وقبل كل شيء مشكل إنساني . إنه مشكل تحويل الإنسان الذي عندنا إلى إنسان يشعر أن حلول مشاكله بين يديه وليست حلولا من روسيا أو امريكا .

المشكل هو كيف نحوِّل الإنسان الذي عندنا ليستفيد من الزمن والأرض الذي عنده استفادة صحيحة وكاملة .

المشكل كيف نصنع لنجعل من الإمكانيات التي عندنا – والتي عند كل الأمم – طاقة فاعلة لا راكدة .

وللوصول إلى هذا المستوى لا بد من **إرادة حضارية** ، لابد أن يكون هناك دافع قوي يحرك الإنسان ويحوله ويحول الإمكانيات التي لدى أُمتِه ، ولو رجعنا إلى تاريخ الحضارات لوجدنا أن لكل حضارة مبدأ أو قيمة أو عقيدة تشكل الدافع الذي يحول الإنسان الراكد إلى إنسان له طاقة حضارية .

والتاريخ يدلنا أن هناك نوعا آخر من الأمم خلت من المباديء الدافعة والأهداف الكبرى وهذه الأمم تتبع المنحدرات ولا تعيش إلا لإشباع غرائزها وشهواتها في دائرة البقاء ، أي في المجال الذي يحفظ لها البقاء المادي الحيواني .

ولقد كان المسلمون في عصورهم الزاهرة يعتبرون الاكتفاء بمجال البقاء سُبَة وإهانة . فيروى أن أحد المسلمين طلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يَقْتَصَّ لَهُ من رجل شتمه حين قال :

دَعِ المكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا
واقْعُدْ فانك أنت الطَاعِمُ الكَاسِي

هذاالرجل اعتبر أن الذي يُثْنِيه عن حياة الكرامة والحرية والمعالي ويَقْصُرُ هَمَّه على الملبس والمأكل يوجه له ضربة في صميم إنسانيته .

بينما نفرح اليوم لو قالت لنا أيةُ أمة أخرى : واقعد فأنك أنت الطاعم الكاسي .

ولقد كان العرب قبل مجيء الإسلام (حينما كانوا شتاتاً) يرون الحياة بهذا الشكل فالشاعر الجاهلي إذاك يرى أن الحياة لا تعدو أن تكون لذة وإشباع للغرائز فيقول :

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنَ عِيشَةِ الفَتَى
لَعَمْرُكَ لَمْ أُحْفَلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ
كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالمَاءِ تَزْبُدِ
وَكَرِي إِذَا نَادَى المُضَافُ مُجَنَّباً
كَسِيدِ الغَضَا نَبَهْتُهُ المُتَوَرِّدِ
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ
بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ

فلولا الخمرة ولولا الحروب وما فيها من سلب ولولا المرأة لما اهتم بساعة وفاته .

ثم لما جاء الإسلام أصبح العربي لا يعيش في دائرة البقاء بل أصبح يعيش من أجل مبدأ ولذلك بنى حضارة ضخمة رغم إنه لم تأته أية رصود مالية أو آلات أو مصانع أو نظريات علمية .

كل ما هو في الأمر هو مجيء مبدأ غمره وأصبح بذلك يقول : « إن محياي ومماتي لله رب العالمين » ، هذا المبدأ هو الذي أصبح يشكل دور الرقيب على غرائزه .

وبدون هذا الرقيب ما كان للعرب أن يبنوا شيئا لأن الإرادة

الحضارية تعني أولا خضوع الغرائز وتوجيهها من أجل الوصول إلى هدف كبير .

ولقد كان هذا هو الحال بالنسبة للنهضة الأوربية الضخمة التي تحققت في هذا القرن ، كان للأوربيين مجموعة من الأهداف تسيطر عليهم وتدفعهم نحو البناء والتقدم ، مثل فكرة الحرية ، المساواة ، والاخاء ، الديمقراطية .

هذه الأهداف كانت تحركهم وتدفعهم للتضحية والموت .

هذه حال كل الأمم التي نهضت في التاريخ .

فالتقدم – والاقتصادي منه على الخصوص – لا ينحل في نطاق الاقتصاد ، بل يجب أن نخرج من مجال الاقتصاد من أجل تحقيقه .

المشكلة الاقتصادية لا تحل بالاقتصار على علم الاقتصاد والاقتصاديين ، إنها تتعلق بالأمة كاملة .

المشكل الاقتصادي هو مشكل إنساني لأنه لا يحل إلا إذا وقع تغيير في قيم الإنسان وأهدافه .

التقدم الاقتصادي تابع إذن للمشكل الثقافي

ومن هذه المسألة نتجت الكارثة التي وقعنا فيها ، فنحن نريد أن نحل المشكل الاقتصادي من داخل الاقتصاد دون أن يطرح من جديد وجودُنا الإنساني كله للبحث .

لقد تركنا موضوع وجود الإنسان ودوره وغايته وبدأنا نبحث عن حلول اقتصادية صرفة ، ولقد كان علينا أن نعرف دورنا في الحياة

والقيم التي من أجلها نضحي وعندها فقط يمكن حل المشاكل الاقتصادية والسياسية والعسكرية والتعليمية .

أما النظر إلى هذه المظاهر مجزءة والبحث لها عن حلول جزئية فهو لا يُجْدي نفعا .

إن الإنسان وِحْدَةٌ متكاملة ، مشاكله كلها لا تحل إلا في إطار هذه الوحدة الإنسانية .

فقبل أن نهتم بتشييد المصنع أو المدرسة أو الإدارة يجب من أجل التقدم أن نشيد الإنسان ، ونعرفه بالغايات التي تحركه وتدفعه والتي تتجاوز مجال الغرائز .

تشييد الإنسان هو الطريق وإلا كان الفشل حليفه رغم كل البرامج والمخططات والخبراء .

الدكتور « شَاخِتْ » ١٨٧٧ - ١٩٧٠

ولزيادة التأكيد نذكر مثالاً مشهوراً يتصل بهذه النقطه ، فمعلوم أن المسئول الأول على المخطط الضخم الذي وضع في ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية هو الدكتور « شاخت » ولقد حقق هذا الرجل لبلاده تقدما اقتصاديا مُذهلاً جعل جميع الغربيين يطلقون عليه اسم « المعجزة الالمانية » .

ولقد ذهب « شاخت » بنفسه إلى اندونيسيا ليضع مخططاً اقتصادياً لها ، ووضع « شاخت » المخطط ، ورغم كل جهود

الدكتور المخطط ظلت أندونيسيا في التخلف إلى اليوم .

فهل نقول إن « شاخت » لا يعرف الاقتصاد ؟

إنه دون مراء من نوابغ الاقتصاديين ، لكن المشكل الاقتصادي ليس اقتصادياً فحسب ، ولذلك نجح الدكتور في ألمانيا لأنه لم يكن غريباً عن روح الأمة وعن شخصيتها ، أما في أندونيسيا فإن الوضع الثقافي والنفسي مخالف لما عرفه .

نقول إذن إن المشكل الاقتصادي لا يحل إلا ضمن طرح للمسألة طرحاً إنسانياً .

يجب أن نعرف من نحن ؟ وما هي الثقافة التي ننتمي إليها ؟

بينما نعيش الآن ممزقين ثقافيا ، بعضنا يرى قدوته فرنسا والآخر أمريكا والآخر روسيا ، وهكذا ، ولو وجدت تجربة في الكنغو لوجد فينا من يتبناها ويدعو إليها .

تغريب العالم الإسلامي

عند هذا الحد يمكن أن يسأل أحد : بما أن المسألة الاقتصادية هي مسألة ثقافية فما الذي يمنعنا من أن نتثقف ثقافة أوروبية ؟

ومثل هذا الاقتراح هو ما يحاوله الآن في البلاد المتخلفة عدد من المسئولين . ففي كثير من البلاد – وتونس من بينها – محاولة لأن نأخذ الغرب بمبادئه وقيمه عسى أن ننجح في الميدان الاقتصادي

ولذلك نجد في المدارس تسخيفاً للغتنا وحضارتنا ونجد إزاءه إظهاراً لتراث الغرب « وحضارته » في أبهى الحلل وأزهاها. نحتقر الشخصيات الإسلامية ونحيط بهالة من التقديس الشخصيات الغربية.

ومرت السنوات والمحاولة قائمة، محاولة تغريب البلاد الإسلامية ولم تزدنا هذه المحاولة إلا عجزا وشللاً فازداد تخلفنا وارتباطنا المريع بأوربا.

ولقد أدرك الغربيون فشل هذه التجربة، يقول جاك بيرك: المستشرق الفرنسي المشهور: « إن محاولة النهضة التكنولوجية في البلاد الإسلامية دون العمل على تأكيد شخصية الأمة إنما تنتهي إلى سحق هذه الأمة » (عن مجلة Jeune Afrique) فالتخلي عن قِيَم هذه الأمة من أجل « تغريبها » للوصول بها إلى مستوى تكنولوجي ينتهي في الأخير إلى محق شخصيتها فتتحول إلى جزء من أخرى لا طاقة لها ولا قوة.

وهذا ما وقع لنا وللعالم كله، فمن أجل التقدم التكنولوجي أصبح للجميع مثل واحد « امريكا » حتى روسيا الشيوعية أصبحت لا تعرف سوى مثال واحد هو الغرب، ولم يبق من الخصومة الرسمالية الشيوعية المزعومة شيئا، إنه تناقض كلامي تاريخي، إن الخط الآن هو خط واحد يتمثل في تحويل الإنسان إلى آلة إنتاج.

المثال الآن هو أن الإنسان قَدْرٌ من الدخل المالي ، والسير في هذ
الطريق ينتهي إلى محق المميزات الإنسانية لكل الأمم وبالخصوص الأمة
الإسلامية ، بينما الآلية ليست غريبة عن الغرب فهي تعبر عن ثقافته
وعن تسلسل تاريخي معين ، بينما الآلية أمر لا علاقة له بالقيم
الإسلامية بل هو مناقض لها .

يقول « فيليب تمبوران » مؤلف كتاب عن الأمير عبدالقادر
الجزائري : « يخيل إلينا أن المسلمين سوف يكونون أكثر تفهما لموقفنا
إذا عملنا على « تحريرهم » من قيمهم ، ولكن الذين جردناهم من
مكوناتهم بفضل الضغوط السياسية والاجتماعية فَقَدوا كل عناصر
القوة فيهم دون أن نُقَدِمَ لهم أي بديل سوى صِيَغٍ فكرية مجردة
واحلام مُرة » (انتهى) .

إن نزع قيم هذه الأمة لا ينتهي بها في الأخير إلا إلى الضياع
وفقدانها لعناصر الدفع الذاتية فيها - وهذا ما نرى عليه اليوم بلاد
المسلمين والعرب لأن عقلية التخلف - عقلية أنَّهُ ليس بالإمكان
أحسن مما كان - هذه العقلية لا يمكن أن تصنع شيئاً مَهْما كان
نوعه .

فلا مفر لنا من أن نصنع انقلاباً في عقولنا يعيد لنا شخصيتنا
وقيمنا الأصيلة .

لابد من انقلاب في أفكارنا يعيد لنا موازين الإسلام ودوافعه . إننا
اليوم دون هذه الدوافع التي كونت أمة الإسلام كالطفل الصغير أو
المريض الذي أصيب بفقدان الذاكرة .

التخلف عندنا ليس سوى فقدان الذاكرة ، فقدان القيم التي صنعتنا ، ولذلك فهي تنحل يوما بعد يوم وتصبح عاجزة عن القيام بأي عمل .

غير أن العودة إلى أصولنا لا يجب أن تجعلنا نلوك ونعيد أمجاد الماضي دون القيام بأي جديد ، وهذا مرض آخر يقابل مرض فقدان الذاكرة هو مرض الشيخوخة ، ويتمثل في الاعتقاد بأننا حققنا كل شئ وانتهينا .

إن التقدم يحتاج إلى هذا الماضي – ذاكرة الأمة وميزانها ودافعها نحو الحركة – ولكن التوقف عند هذا الماضي وتأليهه يصيبنا بمرض الشيخوخة والعجز ، **فلا بد من أخذ ما في الماضي من قيم صحيحة نتخذها دافعاً لحل ما عندنا من مشاكل وما نتردى فيه من مهاوي .**

ولقد أخذت أوربا حين نهضت من ماضيها دافعا في عصر سمته عصر البعث Renaissance فبعثت الثقافة اليونانية الرومانية .

وهذا ما يقع الآن في الصين – على الرغم من التغريب الصريح في الشيوعية – فإن الماضي لا يزال يُستدعى من أجل إبراز شخصية الصين الجديدة ، ولقد زار « نيكسون » من جملة ما زار في المدة الأخيرة سور الصين الشهير وقبور الأباطرة رغم إنها قطع من الماضي السحيق بينما نحن نريد أن ننهض بتَسْخِيفِ ماضينا .

الإسلام هو محركنا

وفي ماضينا ومهما كان الدارس لهذا الماضي ليس عندنا قيم خالدة بعيداً عن الإسلام ، لذلك فإن كل استبعاد للإسلام من ماضينا ليس إلا استبعادا للعنصر الحي الدافع الذي نهض بالعرب فأنشئوا ما أنشئوا باسم الدين لا باسم شيء آخر .

إن أمتنا لم تتحرك في ماضيها إلا بالإسلام ، حتى في عصور الانحطاط لم نتحرك إلا بالإسلام ،حتى الذين مسخهم الغرب فإنهم عندما أرادوا أن يحركوا أمتهم ويدفعوها إلى الثورة لم يجدوا إلا قِيَم الإسلام يحركونها في نفوس شعوبهم ، فكانت الخطب في المساجد وكان الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وكذلك ثورة ليبيا التي قام بها عمر المختار كان محركها الإسلام ، وفي الجزائر وثورة عبدالكريم الخطابي في المغرب وثورة المهدي في السودان و « مشومي » في اندونيسيا .

لقد كانت الثورات الأساسية في أمتنا ذات قيم إسلامية ولقد نجحت هذه الثورات .

وأردنا في مرات أخرى أن نُحِدثَ تغييرات كبيرة وتجاهلنا هذه القيم ظانين أن الأمة مجموعة من الأجساد تتقدم بمجرد قرار أو أمر فكانت الهزائم المنكرة لبرامجنا وتخطيطاتنا .

إننا ونحن ندعو إلى إحياء القيم الإسلامية في أنفسنا وفي مجموعة

الأمة فليس ذلك لمجرد التبرك بالدين ، أو لأن الدين يحل لنا مشكلة ما بعد الموت .

هذه أشياء نريدها

ولكن الإسلام قبل ذلك ومع ذلك يحل مشاكل الأحياء في الدنيا ومشكلة المسلمين أنهم لا يعالجون قضايا حياتهم علاجاً إسلامياً ولذلك هم في المؤخرة .

هذه أهم الخطوط المتصلة بموضوع التخلف وهي لا تتعلق كما سبق أن ذكرت بالنواحي الفنية والجزئية في الاقتصاد بل تخاطب كل انسان في الأمة ، لأن كل إنسان مدعو للتفكير في المشكلة الاقتصادية باعتبار أنه ينتمي إلى هذه الأمة ويتحمل مسئولية توجيهها .

* برنامج الفلسفة وجيل الضياع

« ... وبغير الاتفاق على نوع الثقافة التي ننتمي إليها وتحديد نظرتها الفلسفية وقيمها الخلقية ومنهاجها العملي ، سنظل نخبط خبط عشواء في علاج كل ما يعرض لنا من قضايا ... »

---

* مجلة المعرفة عدد ١٠ س ١٩٧٣ .

مشكلات كثيرة جوهرية نعيشها في بلادنا دون أن تحظى منا بكثير من الدرس والتحليل مثل المشكلة الخلقية ، مشكلة فقدان الثقة في أنفسنا ، مشكلة الجنس ، مشكلة الانطواء على الذات وفقدان الاستعداد للتضحية من أجل الآخرين ، مشكلة التبعية الثقافية ، مشكلة التنمية وعلاقتها بالمشكلة الخلقية الخ ، هذه المشكلات منها ما هو وليد أوضاعنا التاريخية والسياسية والتربوية ومنها ما هو نتيجة انعكاس الوضع العالمي على أوضاعنا الخاصة .

ومن الضروري أن يتوفر لدينا مقياس خاص نقيس به هذه الأوضاع لكي نقدر على حل هذه المشكلات ، من الضروري أن يكون لنا مصباح ينير لنا الدروب خلال سيرنا ويجنبنا العثار والضياع ، أعني لا بد لنا من ثقافة متميزة أي من نظرة خاصة إلى الكون والإنسان والحياة ، من مقياس خاص لأفكارنا وأعمالنا .

ولكن هل نملك نحن هذه الثقافة المتميزة أم لا ؟

إذا كان الجواب : نعم ، فلا بد من تحديد هذه الثقافة التي ننتمي إليها والتي سنحتكم إليها في جميع ما يعرض لنا من مشكلات وقضايا .

وبغير الاتفاق على نوع الثقافة التي ننتمي إليها وتحديد نظرتها الفلسفية وقيمها الخلقية ومنهاجها العملي ، سنظل نخبط خبط عشواء في علاج كل ما يعرض لنا من قضايا لعدم اتفاقنا على نوع الإضاءة التي نسلطها على المشاكل وهذا هو ما يحدث عامة في ميادين التربية

والثقافة والاقتصاد في بلادنا ، وسألج هنا ميدانا من هذه الميادين لي به صلات وثيقة هو ميدان التربية ، وسأركز حديثي في هذا النطاق على مادة واحدة من برامج التربية ، مادة اختصاصي ، مادة الفلسفة لما لها من خطورة بالغة في التكوين العقلي والوجداني والأخلاقي لتلاميذنا .

الفلسفة : تدمير وتخريب

إن درس الفلسفة ليغدو – إذا لم نحدد انتماءنا الثقافي – ليس عديم الفائدة في علاج ما نعانيه من مشكلات فحسب بل عنصر تخريب وتدمير وتشتيت في ميدان النفس والمجتمع ، وهذا هو الحال الذي عليه الآن ، فدرس الفلسفة إما أن يقدم للتلاميذ إجابات متناقضة على مشكلاتهم ، يعجزون عن الاختيار بينها لأنهم فاقدون للمقياس الثقافي الذي سيختارون على أساسه ، وإما أن يقدم لهم إجابات لمشكلات ليست هي مشكلاتهم بل هي مشكلات نشأت في مجتمعات أخرى ذات ثقافات وظروف تختلف كل الاختلاف عن مجتمعنا وما ترسّب في تلك المجتمعات من قيم وعادات ونظرة خاصة للكون ومصيره والانسان وغايته ، وهذه الإجابات على مشكلات ليست هي مشكلاتنا تشل تلاميذنا عن القدرة على علاج ما يزخر به مجتمعهم من مشكلات خاصة به وتقديم حلول تتناسب مع تلك المشكلات فإن دروس الفلسفة العامة تقتصر في الغالب على طرح مشاكل المجتمعات الغربية النفسية والاجتماعية وما قدمت لها من حلول معبرة عما مر به المجتمع الغربي من ثورات اجتماعية ودينية وأوضاع خاصة. فالتحليل التاريخي – مثلا – الذي قدمه ماركس إنما يتناول الأطوار التي مرت بها المجتمعات الغربية فحسب ، والدليل على ذلك أننا لا نجد أية إشارة

إلى المجتمعات الإسلامية في دراسة ماركس للتاريخ ، فكيف يمكن اعتبار نظريته قانونا كليا للتاريخ الإنساني كما تقدم هذه النظرية في مدارسنا ؟ وكيف يمكن اعتبار نظرته للدين ، على أنه مخدر للشعوب وحائل بينها وبين تحقيق الثورة الاجتماعية على الاقطاع ، حكما عاما يشمل كل دين وهي وليدة وضع معين للدين في المجتمعات الأوربية حيث كانت الكنيسة تتعامل مع الاقطاع وتصرف الشعب عن الثورة على الظلم ؟ وكيف يمكن اعتبار نظرية فرويد على أن النفس الإنسانية وما يطرأ عليها من أمراض ليس إلا نتيجة الغريزة الجنسية وهي القوة الفعالة في النفس ، كيف يمكن اعتبارها نظرية علمية مع أنها لم تكن في جزء كبير منها سوى انعكاس لنفسية يهودي مضطهد في مجتمع مسيحي ينظر باحتقار إلى الغريزة الجنسية ؟ وكيف يمكن اعتبار نظرية سارتر إلى القيم الأخلاقية وإلى الحرية نظرية عامة دون ربطها بمرحلة تاريخية معينة يعيشها المجتمع الغربي بعد أن تحطمت قيمته الخلقية ووهنت صلاته الروحية واضمحلت مُثُله العليا للحياة فرآها عبثا وقلقا وسآمة ، وإن المرء ليتساءل لمصلحة مَنْ نَقوم بمسخ هذا الجيل واجتثاثه من أصوله الثقافية وقطع أوصاله عن محيطه وتركه ضائعا ليس يدري إلى أي أمة هو ينتمي ولا إلى أي ثقافة هو ينتسب ولا إلى أي مُثُل ينبغي أن يتطلع ولا إلى أي قيم ينبغي أن يحتكم ؟ **أليست مهمة التربية الأولى تأصيل الإنسان في بيئته الثقافية حتى يتفاعل معها ويسهل عليه حل مشكلاتها .**

لماذا لا نفعل – ونحن لا نفتأ نتغنّى بالتقدميين – ما يفعلون عند

تدريسهم للنظريات الفلسفية والنفسية الاجتماعية والاقتصادية الغربية فيعمدوني إلى فحصها فحصا نقديا على ضوء ثقافتهم الخاصة ثم يقدمونها إلى تلاميذهم وقد تبيّن ما هو زائف وما هو جوهري منها ، ما يتلاءم وثقافتهم الخاصة وما يتنافر معها ،، فيصونون بذلك أبناءهم من الضياع والتبعية الثقافية أو الاستعمار الثقافي بتغيير أوضح ؟ **لماذا لا ندرس** - نحن أيضاً - **ديكارت وماركس ودركايم وسارتر وداروين باعتبارنا ثقافة متميزة لها حلولها الخاصة لمشاكلها الخاصة ؟**

إننا كلما قلنا هذا الكلام تعالت من حولنا صيحات الاحتجاج من أدعياء الموضوعية والحرية ،،، ينبغي أن نكون موضوعيين ، ينبغي أن نترك للتلميذ حرية الاختيار ، ينبغي أن نقف على الحياد مكتفين بطرح المشاكل كما طرحها وحلّلها ماركس أو دركايم أو فرويد أو سارتر ثم على التلميذ بعد ذلك أن يختار من تلقائه هذا جميل **ولكن كيف نرجو من تلميذنا حسن الاختيار ومنهاجنا التربوي لم يزوده بالمقياس الذي سيقيس به والميزان الذي سيزن به**[1] ؟ ألسنا نُزُجُّ بذلك بتلاميذنا في واد الضياع والحيرة والتبعية الثقافية خاصة وأن جيل أساتذة الفلسفة في بلادنا ينتمون إلى ثقافة أجنبية ، فرنسية أو بلجيكية فهل تراهم قادرين على مساعدة تلاميذنا على حل مشكلات لا علاقة لهم بها ؟

إنه لَعَمَلٌ فظيع هذا الذي نقوم به شَعُرْنَا بذلك أمْ لَمْ نَشْعُرْ .

فلسفة إسلامية؟

أما عن دروس الفلسفة المدعوة إسلامية فهي حقا مهزلة المهازل ذلك أن معظم النصوص الواردة في كتاب – مختارات من الفلسفة الإسلامية – وهو المعد للدراسة معظم تلك النصوص لا تصلح إلا أن تكون أكفانا يكفن بها الأموات .

لست أدري ما الهدف من دراسة المادة ، فهل هو مجرد جعل تلاميذنا يعرفون المشكلات التي كانت تشغل المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس ؟ إذا كان هذا هو الهدف فأولى أن تسمى هذه المادة بتاريخ الفلسفة الإسلامية فيهتم بها مؤرخو الفلسفة أو الدارسون الاجتماعيون للأوضاع الاجتماعية في تلك العصور .

ما الذي يهمنا نحن المسلمون المتخلفون المهزومون وبلادنا تتقاذفها مختلف التيارات الثقافية ومجتمعنا يمر بأخطر التناقضات والأزمات أن نعرف موقف المعتزلة من صفات الله هل هي قائمة بذاته أم هي شيء زائد عن الذات ثم موقف ابن رشد من الكون هل هو قديم أم مُحدَث ورأي ابن سينا في النفس وخلودها وموقف الأشعري من الكسب والقضاء والقدر وقضية هل القرآن قديم أم محدث وعلاقة الحكمة بالشريعة والاعتناء بتعريف علم الكلام ؟ **هل هذه المشكلات هي التي يعانيها شبابنا الآن ؟ وهل جاء الإسلام لمثل هذا الجدل العقيم الذي زجت بالعالم الإسلامي في متاهاته أوضاعٌ معينة لا علاقة لـ**

بها الآن ؟ فأين هذه الحلول فيما دُعى جورا الفلسفة الإسلامية ؟

ترى ما هو الشعور الذي يخرج به تلاميذنا من درس الفلسفة الإسلامية والدرس لا يقدم لهم إلا مجموعة من القضايا الميتة التي لا شأن لها ومشكلاتنا في يومنا هذا ؟

ما هي الفكرة التي سيخرجون بها من درس التفكير الإسلامي دون أن يعثروا خلال نصوص الكتاب كله ولو على نص واحد لأحد المفكرين المسلمين المحدثين أمثال محمد إقبال وأبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي والشيخ حسن البنا وسيد قطب ومحمد قطب ومالك بن نبي ؟ ألن يذهب بهم الظن إلى أن الإسلام انقطع عن الوجود وأنه لا يعدو أن يكون جزءً من تراثنا وحسب لا علاقة له بحل مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؟

ثم هذا الفصل بين مادة الفلسفة العامّة وإيلائها هذه الأهمية الكبرى ونوع المشكلات الحية التي تعالجها – المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والنفسية والاقتصادية والسياسية – وبين ما دعي باطلا بالفلسفة الإسلامية وما اقترن بها من ضعف ، وتفاهة الموضوعات ؟ بماذا يوحي هذا الفصل بين المادتين للتلميذ وما الغاية منه ؟ **أليس هو تكريس وتركيز روح الازدراء والاستهانة بثقافتنا الخاصّة التي يشكل الإسلام محورها الأساسي ؟**

ولذا فإنّي اقترح أن تعاد هذه الأكفان إلى قبورها ويوارى التراب على هذه المشكلات الزائفة وكفاها ما أحدثته في تاريخنا من

اضطرابات وفتن وحروب وتشتت ، ويستعاض عنها وعن مادة الفلسفة العامة بما حوته من ضرورات العلاج لمشكلات ليست هي مشكلاتنا الحقيقية يستعاض عن ذلك بمادة واحدة تتولى طرح مشكلاتنا الحقيقية ، المشكلات الخلقية والجنسية والاقتصادية والسياسية إلى جانب موقفنا من الكون ومصيره والإنسان وغايته والحياة وأهدافها ، على أن تعالج هذه المشاكل باعتبارها ثقافة متميزة لها ماض تعتز به ومستقبل تتطلع إليه وحاضر تجاهد للتغلب على تناقضاته ومشاكله ، ثقافة متميزة الإسلام محتواها والعربية إطارها ، فتنقذ بذلك جيل الضياع الذي ما فتئ يتكاثر في بلادنا .

---

(١) نبه ابن خلدون في مقدمته إلى خطر دراسة الفلسفة على الناشئة قبل أن يتمكنوا من التعمق في الإسلام .

* الحاجز النفسي آخر الحصون

- ☐ الغزو الفكري .
- ☐ الصلح مع اليهود .
- ☐ الحوار المسيحي الإسلامي .
- ☐ المطران كابودجي محرر القدس .

---

* مجلة المعرفة ٧٩/٦/٢٥

تحرص الأمم في مرحلة تكوينها على أن يتم هذا التكوين بعيداً عن المؤثرات الخارجية ، فتمارس نوعاً من العزلة عما يحيط بها .. وفي هذا الصدد نفهم زجر النبى -ﷺ- لعمر بن الخطاب عندما وجد بيده صفحة من التوراة .. كما نفهم حملة الغرب على الحضارة الإسلامية في عصر انبعاثه والأمر نفسه بالنسبة للولايات المتحدة التي لم تتفتح على العالم إلا خلال الحرب العالمية الثانية ،، والاتحاد السوفياتي الذي لم يفتح بابا في ستاره الحديدي إلا مع خروتشوف في الخمسينات ، أما الصين فلم تبدأ انفتاحها على العالم الخارجي إلا أخيراً على يد « هواكو فينغ » .

أما بالنسبة للعالم الإسلامي الحالي فقد سار بعيداً عن هذه القاعدة : ومرحلة التفتح - في شكله العام - تأتي بعد أن تتم مرحلة التكوين الحضاري .

وفي هذا الصدد كتبنا هذه الافتتاحية .

الحاجز النفسي آخر الحصون

إن بقاء الأمة واستمرارها عبر الأجيال لا يتم إلا بالمحافظة على العناصر المكونة لشخصيتها والمانعة لها من الذوبان في كيانات أخرى .. فالأمة ككل كيان حي تدافع عن نفسها بالمحافظة على

الغـزو الفكـري

لقد انصبت جهود الغربيين منذ قرن على معالجة هذا الحاجز النفسي بعد أن أسقطوا دولة الخلافة .. وفي هذا الصدد تندرج سيطرتهم على برامج التربية والتعليم في العالم الإسلامي وكذا برامج الإعلام بواسطة بعثاتهم التعليمية والتبشيرية التي أنشأت جيلا من المسلمين لا ينظر إلى نفسه وثقافة أمته والعالم إلا بمنظار معلميه وأساتذته الغربيين .

الصـلح مـع اليـهود

وإن أخطر ما في الصلح مع الدولة اليهودية وفتح أبواب العرب أمام وسائل إعلامها ومؤسساتها الاقتصادية وخبرائها تأثيرها الفعال على بقية الحواجز النفسية لأمتنا تلك الحواجز من النفرة من اليهود والنظرة إليهم على أنهم أعداء الله والإنسانية يفسدون في الأرض حيثما حلّوا .. ذلك الشعور الذي غرسه الإسلام في نفوس المسلمين ورسخته الثقافة الإسلامية خلال القرون الطويلة .. فيأتي اليوم مشروع الخيانة الساداتية يعمل في ذلك الشعور تمزيقا وتبديدا ليُحل محله شعورا آخر بتفوق اليهود واعتبارهم رسل حضارة إلى عالم العرب وبشارة أمل للنهضة والرقي .

الحوار المسيحي - الإسلامي

انعقدت في السنوات الأخيرة عدة مؤتمرات لهذا الحوار في عدة بلدان فازت فيها تونس بقصب السبق فشهدت مؤتمرين حتى الآن .. تجمع هذه المؤتمرات مجموعة من علماء المسيحية والإسلام للحوار حول موضوعات محددة تهم الديانتين .

وليست فكرة الحوار بين المسلمين وغيرهم من أبناء الديانات بجديدة فقد كانت المناظرات بين المسلمين وغيرهم قائمة منذ العهد الأول للإسلام .. ولكن الجديد هو الروح التي أخذت تفرض نفسها على هذا الحوار .

لقد كان المسلمون ، قبل أن يبرز فيهم الساسة المهزومون والعلماء المهزومون ينطلقون في حوارهم من أرضية عقائدية تقوم على اعتبار الإسلام الحقيقة المطلقة الوحيدة المنزلة من عند الله والتي حافظت على نقاوتها من كل شوب ، الحقيقة التي استوعبت كل رسالات الأنبياء السابقين وحررت دعوتهم من ألوان الزيف والتحريف التي داخلتها عبر القرون .. وبالتالي فقد غدت الطريق الوحيدة إلى عبادة الله ومرضاته والمنهاج الوحيد الذي ارتضاه لهم إلى الأبد فمن تبعه نال سعادة الدارين ومن خالفه شقي فيها .. ومن ثم نفى الإسلام بشدة مصطلح الديانات السماوية إذ الدين واحد « إن الدين عند الله الإسلام » « الإسلام الذي أرسل به كل الأنبياء واكتمل خالصا

صافيا برسالة النبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام » من هذا المنطلق كان المسلمون يناظرون المسيحيين واليهود وغيرهم يكشفون لهم ما في ديانتهم من زيف واختلاق وتناقض ويدعونهم من ثم إلى الحقيقة الخالصة « الإسلام » دين كل الأنبياء وفي هذا الصدد تندرج كتابات الغزالي وابن حزم وولي الله الدهلولي .. أما وقد بليت هذه الأمة بالهزيمة النفسية بعد الهزيمة المادية فقد تغير الأمر ..

يجلس علماء المسلمين مع قادة التبشير المسيحيين ليتحدث هؤلاء وأولئك كل من « وجهة نظره » حول المشكل المطروح .. باحثا عن وجهات النظر المتقاربة .. مقارنا بين الحقيقة الإسلامية والحقيقة المسيحية وكأنهما من مستوى واحد ... وإذا لم يستطع المبشر المسيحي أن يحقق إلا أمرا واحدا هو اعتراف المسلم به ممثلا لدين سماوي يحمل الحقيقة كغيره ، اعتبر نفسه قد فاز بأمر عظيم زحزح به « المسلم عن موقع » كان يعتصم به لقرون طويلة .. وكثيرا ما يتجاوز المبشر هذا المغنم فيدفع المسلم باسم الموضوعية العلمية إلى أن يتنازل عن مواقع أخرى هامة أو يضعها موضع الشك مثل فكرة « ختم النبوة » كما حدث في المؤتمر الإسلامي المسيحي الأخير بتونس .

ولا يظن أحد أن هذا الحديث يسارع إلى إلقاء وإصدار الأحكام المسبقة على جهود علمائنا المسلمين الذين نشطوا في هذا المؤتمر – وفيهم أصحاب الفضل – فقد حاولت أن أقنع نفسي بغير التسمية التي وصلت إليها من خلال تتبع أعمال المؤتمر وهي أنه خطوة في طريق تذويب بقية الحواجز النفسية التي تحتمي بها أمتنا .. حاولت أن

اقنع نفسي بغير هذه التسمية فبحثت في المحاضرات الكثيرة التي ألقيت في المؤتمرين الذين انعقدا بتونس عن محاضرة فيها نقد علمي لأصول المسيحية ودعوة الطرف الآخر لأن يراجع منطلقاته .. دعوة تنطلق من نفس مشبعة ومطمئنة بروح هذه الآية ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ أو الآية الأخرى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة ﴾ فما ظفرت عبر سيل الكلام الذي ألقي بما يطمئنني أن روح الغزالي وابن حزم وابن تيمية لا يزال شيء من حرارتها يجري في كيان علمائنا ممثلي الإسلام اليوم .

المطران كابودجي محرر القدس
القدس .. بالأمس حررها صلاح الدين واليوم كابودجي

ويبلغ هذا الاتجاه في تمييع الحواجز النفسية ذروته في الزيارة التي قام بها أخيرا المطران كابودجي لبلادنا .. إن السواد ، زي المطرنة ، قد ارتبط في ذاكرة الشعب التونسي بالفترة الحالكة من تاريخنا ، فترة الاستعمار الفرنسي حيث هجم تحت مظلته على بلادنا جيش من الغربان السوداء – حسب تعبير زعمائنا في ذلك الوقت لتقيم مؤتمراً تبشيرياً سمي « المؤتمر الافخراستي » تأكيدا للصفة النصرانية لتونس بعد تحررها من الإسلام .. ولكن الشعب استيقظ فانجلت الغربان واشرقت الشمس ... واليوم تعود هذه الغربان في شكل مؤتمرات للحوار وفي شكل حملة دعائية لتحرير فلسطين .. تحرير القدس .. إن شعار تحرير فلسطين حبيب لنفس كل مسلم يذكره بأمجاد عظيمة

للإسلام انجزها المسلمون بقيادة عمر بن الخطاب الفاتح وصلاح الدين المحرر .. أليس حمل هذا الشعار من قبل المطران كابودجي كفيلا بإزالة الصورة القاتمة التي رسمها التاريخ في ذاكرة المسلم حول التبشير ودوره في الاستعمار ؟ أليس ذلك كفيلا بتذويب بقية الحواجز النفسية التي بقيت أمتنا تحتمي بها بعد سقوط الحواجز المادية .

إن الإسلام وهو درع هذه الأمة يتجرد في استعمال المطران من كل معنى اصطلاحي ، إنه يغدو عبارة مطاطة من عبارات اللغة العربية تنسحب فوق المسلم والنصراني واليهودي .. على السواء .

اسمعوا إلى المطران : « كلنا مسلمون منا من أسلم عن طريق القرآن .. منا من أسلم عن طريق الانجيل .. منا من أسلم عن طريق الحكمة الرب ابونا . تزوجت القدس .. عهد الله اليَّ بتحرير القدس » .

تنبيـــه

وتأكيد المسلم على الصفة الإسلامية لتحركه الثوري لا يمنعه أبدا من دعوة محبي الحرية والعدالة في بلادنا والعالم مهما اختلفت منطلقاتهم العقائدية والمذهبية للقضاء على الأنظمة الظالمة المستبدة مثل النظام العنصري الصهيوني في فلسطين .

وبهذه المناسبة لا بد لنا من كلمة نوجهها لأبناء الثورة الفلسطينية .. نقولها لهم في صراحة .. إن ارتباط الأمة الإسلامية بفلسطين لا ينفصل أبداً عن ارتباطها بالإسلام وتاريخه، بالإسلام فتحت .. وبالإسلام تحررت وبالتخلي عنه ضاعت .. فهل بقي لكم أمل وقد خانتكم الأنظمة الغربية والاشتراكية وهي كلها معترفة باسرائيل .. واكتويتم بنيران أتباعها الليبراليين والاشتراكيين في العالم العربي هل بقي لكم أمل في البابا ومبعوثيه مثل المطران كابودجي .. إن لكل ثورة ثقافة عقائدية تحدد أيديولوجية المقاتل .. ولقد آن الآوان لتحدد الثورة الفلسطينية انتماءها العقائدي بوضوح حتى تكون لهذه الثورة أرضية صلبة تنطلق منها تخرج بها عن الوضع المائع الذي يجعل من الفلسطيني رجعياً مع الرجعيين واشتراكياً مع الاشتراكيين ومسلما مع المسلمين ونصرانيا مع النصارى ويهوديا مع اليهود .. ويوم أن تحدد الثورة بوضوح انتماءها العقائدي للإسلام سوف تجد ملياراً من المسلمين وراءها يفدون بأرواحهم ويقولون مع الخميني : أن منيتي أن أقاتل في فلسطين وأموت على أرضها شهيداً ..

واغتنم قائد الثورة الإسلامية فرصة لقائه مع ياسر عرفات ليؤكد له بعد طرد السفارة اليهودية من طهران التأييد المطلق للثورة الفلسطينية وأن الجيش الايراني وجنود الثورة سوف يقاتلون بجانبهم .. وليدعوه إلى التخلي عن شعار الدولة اللائكية .

لقد اتخذ شعار تحرير فلسطين مدخلا للتبشير بالقومية العربية والمذاهب الاشتراكية وحتى الدعاية النصرانية بدأت تأخذ نصيبها .

أما آن الآوان للقضية أن يتبناها أصحابها ويأخذوها من أيدي المتاجرين بها ؟

إن العالم الإسلامي يعيش أزمات على جميع المستويات ولقد فشلت الوصفات المتنوعة التي قدمت علاجا لهذه الأزمات لأنها تجاهلت البناء النفسي والثقافي للأمة بل تركته مسرحا لهجمات كثيرة من الشرق والغرب .. فظلت تتحرك ولكن بلا وعي ولا ضمير ولا حماس .. ومن ثم كان على العاملين للإسلام وهم يحملون أعباء إعادة بناء الأمة والانطلاق الحضاري بها – أن يدركوا أن هذا البناء يحتاج إلى أساس ثقافي متين ينطلق من الإسلام مستوعبا ثقافة العصر ومكاسبه مجسدا لها في بدائل إسلامية في ميدان الفن والأدب والإعلام والاقتصاد .. فيعود للأمة شعورها بذاتها واعتزازها بهذه الذات مع قدرة على هضم عصرها وتقديم الحلول الناجعة لمشكلاته .. بعيدا عن الانغلاق والذوبان .. فتحفظ لأمتنا الحواجز النفسية التي تفصلها عن غيرها وتكون تلك الحواجز بمثابة المصفاة لكل ما يحيط بنا من ألوان الثقافة .. ونكون بذلك قد مهدنا الطريق أمام الإسلام ليستعيد شخصيته الاجتماعية والسياسية ويقوم بمهمته في إنقاذ أمتنا والعالم .

• العمل الإسلامي وقطاع الطرق

- ☐ موسى يتربى في قصر فرعون .
- ☐ الإعلام والسحر .
- ☐ قانون المنعكس الشرطي .
- ☐ العمل الإسلامي والفتنة .
- ☐ الدعوة إلى الإسلام وتهديد الوحدة القومية .
- ☐ الدعوة إلى الإسلام والتكالب على السلطة عن طريق التستر بالدين .
- ☐ العمل الإسلامي والرجعية والتأخر .
- ☐ بين العمل الإسلامي والعنف .

• مجلة المعرفة ٧٩/٥/١٥ .

لا تزال ظاهرة الاتجاه نحو الإسلام في صورته الشاملة .. تلك الظاهرة الآخذة في الانتشار السريع على حساب ظاهرة التغريب على الطريقة الرأسمالية التي سادت العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين ، أو التغريب على الطريقة الماركسية التي سادت الربع الثالث من هذا القرن .

لا تزال هذه الظاهرة التي تكتسح مختلف الأصناف الاجتماعية وخاصة الشباب والفقراء .. لا تزال تثير حيرة وارتباكا – خاصة بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران والباكستان .. تبعث في نفوس حماة التغريب والمستفيدين منه في الشرق أو الغرب وامتداداتهما في العالم الإسلامي مخاوف كثيرة وألوانا من الرعب والفزع جعلت هذه الأوساط تعيش فيما يشبه حالة الطوارئ .. فانطلقت صيحات الفزع وارتفعت أصوات النكير على « الرجعين » على ألسنة رجال السياسة والمفكرين والخطباء ومراسلي الصحف ومعلقيها .. واتجه الجميع للقيام بدور يشبه دور قاطع الطريق أمام مسيرة الإسلام المظفرة الزاحفة على عالم الضياع .. عالم التبعية والاستغلال والاستبداد .. تبشر بالإنسان الجديد « المتوحد » مع ذاته .. والمجتمع الجديد ، مجتمع العزة والمساواة والحرية في ظل الإسلام العظيم .

« موسى يتربى في قصر فرعون »

ورد في بعض الآثار أن أحد فراعنة مصر – وكم عرفت مصر من فراعنة !– كان منشغل البال بقضية الشعوب الواقعة تحت سيطرته ، يمتص عرقها ويستبيح كرامتها .. وكان ككل طاغ مترف يخشى ثورة الشعب .. وتنامت مخاوفه حتى غدت تطارده في أحلامه فرأى ذات ليلة أن ولدا لأحد تلك الشعوب المستعبدة له سيولد فتكون نهايته على يده ، فقام من نومه منزعجا وصمم على قتل كل ولد ذكر يولد لذلك الشعب .. غير أن ولدا واحدا قد نجا – بأعجوبة – من القرار الصارم فرقت لحاله زوجة فرعون ورغبت في الإبقاء عليه تربيه فيملأ فراغ القصر .. حتى إذا شب الولد واكتمل رجولة عافت نفسه ما يمارسه الفرعون من ظلم واستغلال فطفق يندد بالملك الظالم داعيا الشعب إلى الثورة .. وكان لكلمات هذا الشاب – المؤيد بالمعجزات – وقع كبير في نفوس المحرومين المضطهدين .. فلم يجد فرعون بدا من استخدام أحد الأجهزة الفعالة التي يقوم عليها حكمه وهم السحرة الذين بثهم في كل صقع من البلاد يزيفون الحقائق ويفسدون العقول يمهدونها للرضى والقبول بكل ما يصدر عن الفرعون .. حشر فرعون سحرته ودفعهم إلى تحدي دعوة الحق وتزييفها .. ولكن بطل السحر وزهق الباطل أمام صولة الحق .. فلجأ فرعون إلى ما يلجأ إليه كل طاغ كلما اعجزه الكذب والتزييف .. لجأ إلى العصا .. الجيش . ولكن الحق كان ولا يزال

أقوى من العصا . فهلك الفرعون وجنده وانتصرت ثورة الشعب بقيادة موسى تحت راية الإسلام .

والقصة على بساطتها تتكرر اليوم ، تلقي أضواء كاشفة عن علاقة الغرب بالإسلام . فبعد أن ظن الغرب أنه قد قضى على كل إمكانية لخصوبة الإسلام ونهضته عن طريق سيطرته على الحياة الثقافية والاجتماعية في العالم الإسلامي ، فأنشأ أجيالاً من المسلمين منبتة عن الإسلام وحضارته وتاريخه ، واستباح خيرات المسلمين ، إذا بحركة وعي ويقظة تنطلق من قلب العالم الإسلامي من قلب المراكز الثقافية التي ظن الغرب أن سيطرته عليها قد تمت .. وهكذا أشبه يوم الإسلام أمسه .. فالإسلام اليوم هو موسى الذي ترنى في قصر فرعون ..

الإعـــلام والســـحر

وإذا كان فرعون الأمس عندما أدرك أن خطته في القضاء على إمكانية الثورة لم تنجح لجأ إلى السحرة يتحدى بهم موسى محاولا تزييف الحق الذي معه وإخماد الثورة التي حملتها دعوته فإن فرعون العصر (الغرب) بعد أن عجز عن القضاء على الإسلام بواسطة العنف ، لجأ إلى ممارسة أسلوب آخر هو الإعلام .. الإعلام عند فرعون هذا الزمان المترف الطاغي يحمل قوة الساحر ، وأشد منها عند فرعون الأمس وكما ينفث الساحر في صدور الناس من الأوهام مما

يجعلهم خاضعين لسلطانه، لا يرون الأشياء والوقائع وحتى أنفسهم ومن حولهم إلا على النحو الذي يريد الفرعون « ما أريكم إلا ما أرى »[1] فإن رجل الإعلام اليوم – غالبا – يقوم بنفس الخدمة لفرعون الزمان بفاعلية أكبر مستفيداً من تطور العلم والصناعة والدراسات الاجتماعية والنفسية لمختلف الشعوب .. وهكذا يمثل قوة ضاغطة قاهرة موجهة تفوق فاعليتها فاعلية القنابل الذرية .. فقد تحكم الغرب في مصادر الأخبار ومسالك توزيعها عن طريق وكالاته وصحفه وإذاعاته .. يلون الأحداث والوقائع والأشخاص كما يشاء لخدمة مصالحه واستمرار سيطرته واستنزافه لخيرات البشرية. ويظن الناس اليوم – أكثر من أي وقت مضى – إنهم قد تحرروا ، ولكنهم ودون شعور منهم تكيف أذواقهم وآراؤهم واتجاهاتهم وسياساتهم بحسب المخطط الغربي الذي يقتضي – لكي يستمر الغرب في ازدهاره ورفاهه وقوته – العمل على إبقاء الشعوب في وضع الخادم الأمين الوفي لسيده .. وخاصة شعوب العالم الإسلامي لما لها من قيم حضارية وإنسانية تأبى عليها الذل والاستكانة والتبعية. فلا عجب والحال هذه أن يقف الغرب – الرأسمالي والاشتراكي وامتداداتهما في العالم الإسلامي – من تطلعات العالم الإسلامي تجاه النهضة والتحرر – وهي تطلعات لا تنفصل أبدا عن الإسلام – موقفا معاديا حاقدا . وكما حشر فرعون بالأمس سحرته لحرب دعوة موسى الإسلامية يحشر الغرب اليوم سحرته (أجهزة أعلامه) في عملية رهيبة لوأد هذه التطلعات .. حتى إذا أفلتت من حساباته إحدى هذه التطلعات ونجحت – كما حدث في إيران وباكستان – حشر سحرته وجنده

لقطع الطريق عنها حتى لا يمتد تأثيرها إلى بقية أطراف العالم الإسلامي المخدر بسحر الغرب، وإلى العالم كله الذي يئن تحت قبضة الفراعنة الاستعماريين في ثوب تحرري والفراعنة الشيوعيين في ثوب اشتراكي .

قانون المنعكس الشرطي

وإذا كان الإعلام اليوم يقوم بالدور الذي كان يقوم به الساحر بالأمس من دعم لسلطة فرعون والتصدي لدعوة الحق وتشويهها وقطع الطريق عنها أن تنشر وتعم فتوقظ وتشحذ وتجند.. وتبدد الظلمات ، كان لزاما على جنود البعث الإسلامي ورواد تحرير الإنسانية أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة يكشفون آثارها المدمرة ويحللون القوانين العلمية التي تقوم عليها .. وإن أهم هذه القوانين النفسية تلك التي كشفها أبو حامد الغزالي وأثبتها « بافلوف » تجريبيا . قانون المنعكس الشرطي .. ويقوم على فكرة بسيطة : أنه كلما تكررت ظاهرتان وتتابعتا في الحدوث حصل بينهما اقتران وارتباط على نحو أن إحداهما تستدعي الأخرى .. رغم أن العلاقة بينهما قد تكون غير موجودة في الأصل .. فإذا كان الناس يحبون إحدى الممثلات فيكفي أن ترتدي ثوبا معينا أو تدخن صنفا معينا من السجائر حتى تنتقل محبتهم إلى ذلك الصنف من الثياب أو السجائر فيقبلون عليه .. والدعاية تستفيد كثيرا من هذا القانون ..

إن الدعاية ضد الإسلام وتشويه رجاله وحركاته لقطع الطريق دونها .. لتستفيد من كثير من القوانين النفسية والاجتماعية مثل هذا القانون .. تستغل ما ترسب في تراثنا وواقعنا من كره لكثير من المفاهيم ، كالفتنة والتفرق والتكالب على السلطة والتأخر والعنف .. فتعمد إلى تحريك ذلك الرصيد من الكره في العقل الجمعي لهذه المفاهيم وتجتهد عن طريق التكرار المتنوع لتوجد ارتباطا شرطيا بين هذه المفاهيم وبين الدعوة الإسلامية ورجالها .. قاطعة الطريق أمام أي تطلع للعالم الإسلامي في اتجاه التحرر من التبعية والاستغلال والاستبداد .

وسنعمد في عجالة إلى القاء بعض الأضواء الكاشفة على هذه الارتباطات آملين في أن تتحرر منها أمتنا وتنجو من القبضة الجهنمية التي تطوقها .. وتخنق أنفاسها .

الارتباط الأول
العمل الإسلامي والفتنة

إن لمفهوم « الفتنة » في طيات العقل الجمعي لأمتنا إشعاعات مخيفة ورواسب مزعجة، ترسبت عبر عصور طويلة من التقاتل بين المسلمين، بداية من القتال بين علي ومعاوية وهو أحد أكبر الأحداث المؤلمة في تاريخنا .. الذي اجتهد بعض كبار المفكرين في إحياء ذكراه بتأليف كتاب حوله : « الفتنة الكبرى » .. فتأتي وسائل الإعلام وهي بصدد

حملاتها ضد المد الإسلامي المتصاعد لتحرك ذلك الرصيد من الآلام الكامن في أطواء العقل الجمعي تحت عنوان « الفتنة » وتجتهد في ربط العمل الإسلامي به على أنه فتنة مؤكدة هذا المعنى بآيات من القرآن تحذر من الفتنة و « الفتنة أشد من القتل »[٢]. وبذلك ينفر الناس من هذه الدعوة .. وتحارب دعوة القرآن بالقرآن نفسه ولو كان هؤلاء طلاب حق وليسوا طلاب « فتنة » لكلفوا أنفسهم جهدا يسيرا في الرجوع لكتب التفسير ترفع عنهم الجهل وتبصرهم بمعاني هذه الآية من التنزيل .

ذكر المفسرون (ابن كثير ، القرطبي ..) سبب نزول هذه الآية : « إن بعض المسلمين قتلوا رجلا من المشركين خلال الأشهر الحرم وهي أشهر تقدسها العرب وتمتنع عن الحرب فيها ، ولم يكن هؤلاء قد علموا بدخولها ولا أمروا بالقتل فاستغل الإعلام القرشي المضاد للدعوة الإسلامية هذه الحادثة وطفق يردد بأن محمداً الذي يزعم أنه داع لدين إبراهيم كيف يأمر أتباعه بانتهاك الأشهر المقدسة فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام : قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[٣] .

« أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله – مع الكفر به – وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم والفتنة أي جبر المسلم على الخروج عن دينه

ورده إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل » فالفتنة هنا بمعنى الكفر والشرك والمعصية وما تبع ذلك من اضطهاد المسلمين وإخراجهم من مكة وهم يعبدون الله وصدهم عن عبادة الله والدعوة إليه . فتلك عند الله جريمة أكبر من القتل بل القتل أخف على المؤمن من الخروج عن الدين ومصادرة حريته في عبادة الله والدعوة إلى ذلك ، وهل للحياة من قيمة بدون حرية .. فالفتنة إذن هي منع حرية المعتقد والدعوة إليه وممارسة الإرهاب ضد الدعاة إلى الله .. وفي دعوتهم رحمة للبشرية وتحريرها من الوهم والاستبداد والاستغلال فأي فتان إذن أكبر من ذلك الذي يجعل رزقه الكذب على الدعاة إلى الله وتشويه دعوتهم والتنفير منها إنه مجرم في حق نفسه والإنسانية لأنه يحرمها من رحمة الإسلام وعدله .

الارتباط الثاني
الدعوة إلى الإسلام وتهديد الوحدة القومية

إن استقرار مجتمع ما شرط أساسي لتقدمه وأمنه وازدهاره وسعادته . ومن شروط تحقيق ذلك تضامن أفراده .. غير أن تاريخنا حفل بكثير من تجارب التمرد والعصيان واعتماد السيف – أحياناً – لحل الاختلاف في الرأي مما جر على الأمة خسائر فادحة في الأموال والأنفس رسبت في العقل الجمعي للأمة توجسا من كل حركة تغييرية وميلا إلى الرضى بالأوضاع القائمة مخافة أن يأتي ما هو أسوأ منها وهذه النظرة السوداوية إلى المستقبل عبّر عنها العقل الجمعي في هذا

المثال العامي « شد مشومك .. لا يجيك ما أشوم منه » حافظ على وضعك فإنه على شئومه قد يجيء ما هو أكبر منه شئوماً .

وتستفيد وسائل الاعلام المضادة للعمل الإسلامي من هذا الرصيد الذي لا تفتأ تنميه بالتركيز على أخبار الانقلابات والثورات وإبراز ما صاحبها من خسائر وآلام ودمار .. مما يجعل عمل المصلحين في هذه البلاد يصطدم بجدار من الخوف المَرَضي على وحدة الأمة ومصالحها .

ولكن هل يصدّق عاقل أن الدعوة إلى الله واستعادة الانسجام المفقود بين الأمّة وعقائدها – والتناقض بينهما اليوم حادّ – مهدد لوحدة صفوفها واستقرارها ؟ .. الجميع يعلم حالة العرب من التفرق والتناحر قبل أن يكرمهم الله بالروح الجامع : الإسلام .. أليست شخصية الأمة إنما تتمثل قبل كل شيء في الثقافة التي توحد تصوراتها وقيمها وأذواقها وعاداتها وتطبع أفرادها على اختلافهم بطابع واحد .. حتى يغدو ضياع تلك الثقافة ضياعا للأمة ؟ فهل يتصور دارس جاد إمكانية الفصل بالنسبة لأمتنا بين الدين الإسلامي والثقافة إلا إذا انفصل الروح عن الجسد ؟ ألم تغدو أمتنا بإبعاد الإسلام عن ساحة التوجيه ومركز القيادة في المجتمع إلى مايشبه هيكلا بلاروح، مما جعلها أرضا خصبة للغزو الاستعماري بمختلف أشكاله ؟ فتمزقت الصفوف بين يمين ويسار وفصائل شتى تتبع كل ناعق في حضارة الغرب، وولّد عند أفرادها روح اللامبالاة والانصراف إلى المتعة واللهو بعيدا عن التفكير في مصلحة الأمة ورفعتها ، وتهيأ المناخ الملائم لظهور النزعات الشعوبية والعرقية (الطورانية ، الفارسية ،

الفرعونية ، البربرية ، الفينيقية) وفي مستوى وطننا هذا : (أهل الشمال ، أبناء العاصمة ، السواحلية .. أهل الجنوب . ويستمر التمزق داخل كل وحدة من هذه الوحدات) نتيجة غياب الروح الجامع : الإسلام . فكيف يصدق عاقل أن تكون الدعوة إلى التحام الأمة بدينها والروح بالجسد دعوة إلى الفرقة والتشتت ؟ لنستمع إلى الذكر الحكيم ينطق بفصل المقال : ﴿ وألّف بين قلوبهم .. لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألّف بينهم ﴾[٤] ورحم الله علامتنا عبدالرحمن بن خلدون فقد كان مرآة صافية لأنوار القرآن – كما وصفه محمد إقبال – وأفضل دارس اجتماعي لمكونات الشعب العربي يقول « فصل في أن العرب لا يقوم لهم الملك إلا بصبغة دينية لأنهم لخلق التوحش الذي فيهم (يقصد الفردية) أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض » .

إنه ما تمزقت الأمة إلى عصبيات عرقية وجهوية وأحزاب عقائدية وسياسية متناحرة إلا يوم أن غاب الروح الجامع عن مركز القيادة والتوجيه في حياتنا الاجتماعية .

*الارتباط الثالث
الدعوة إلى الإسلام والتكالب على السلطة عن طريق التستر بالدين

لا تفتأ الصحافة تردد هذا الارتباط نقلا عن كثير من السياسيين ورجال الفكر حتى غدت هذه المقولة جزءاً لا يتجزأ من برنامج أغلب الاجتماعات وبديهية من البديهيات التي لا يحتاج صاحبها إلى البرهنة عليها – رغم أن العلم قد رفض اليوم وجود حقائق بديهية – وكثيرا ما تتولى الصحافة من تلقائها إبراز هذه المقولة كما فعلت الزميلة «الصباح» في نقلها لأحد خطب المسئولين ، فتبرعت بعنوان بارز للخطبة « القليبي يحلل الديمقراطية في الإسلام ويشهر بأساليب الإخوانجية ومغالطتهم » ولا يتردد وزير للإعلام سابق ، يعد اليوم ضمن قائمة المحللين السياسيين المرموقين والموسومين بالدقة والعمق ، في تأكيد هذه المقولة المجانية دون أن يشعر بحاجة إلى البرهان والتثبت وهو يدلي بشهادته أمام مراسلين أجانب لإعانتهم على فهم ظاهرة اقبال الشباب في العالم الإسلامي على التدين يؤكد شهادته فيقول : لنضع الأمور في نصابها « ان الحركات الإسلامية المعاصرة – خلافا للظاهر – ليست حركات دينية ، انها حركات سياسية » نقلت هذا التحليل « الموضوعي » مجلة عالمية ضمن تحقيق عن الحركات الإسلامية تحت عنوان « الغرب في مواجهة الحمى الإسلامية الشديدة » وجسدت هذه الفكرة في غلاف يحمل صورة كارتر في

---

* مجلة المعرفة ع ٧ س ٥ – ٧٩/٧/٢٥

مواجهة البيت الحرام في مكة ولأهمية هذا التصريح و « موضوعيته » فقد أعادت زميلتنا « الديمقراطية » نشره للقراء التونسيين للتعبير عن تعاطفها مع العمل الإسلامي في بلادنا والعالم !!

ونحن مبدئيا لا نرى أي حرج في التأكيد على أن السياسة جزء من برنامج الإسلام الشامل في توجيه الحياة .. فالإسلام يرفض بشدة المقولة الغربية « الفصل بين الدين والدولة » إذ الدولة في الإسلام يجب أن تكون خادمة للدين قائمة على حراسته وتنفيذ أمره ورفع كلمته في الدنيا .. وبالتالي ليس جريمة أن تكون للمسلم غايات سياسية فهو يصر على أن لا يحكم إلا بالإسلام .. إنه يريد الحرية في بلاده والعالم . إنه يرفض الاستبداد واحتكار المواطنة لفئة خاصة من الناس كما يرفض الاستغلال بكل صوره والتبعية للشرق والغرب ويعتبر أن الأمة المسلمة كيان واحد وأن المسلمين من واجبهم الديني أن يعملوا على تطبيق برنامج الإسلام الشامل في كل جوانب حياتهم .. فأي حرج في ذلك أو جريمة حتى يضطر المسلم إلى التخفي أو التستر ..؟ بل إن ذلك واجب وطني فضلا عن كونه واجبا دينيا .. ولو كان تفكير المواطن واهتمامه بقضايا وطنه السياسية وغيرها وسعيه للمشاركة فيها وتوجيهها وفق قناعاته جريمة لكان كل الحكام في الدنيا اليوم مجرمين لأنهم كلهم لم يصلوا إلى الحكم ولم يحافظوا عليه إلا بسعي حثيث وجهد كبير .. بل نرى من الجريمة الا ينشغل المواطن بمستقبل بلاده السياسي .. كل ما في الأمر أن تكون مشاركته السياسية مندرجة ضمن الاطار الأخلاقي والدستوري للبلاد .

والمسلم في هذا الصدد مقيد بمبادئ أخلاقية إنسانية لا يستطيع انفكاكا عنها وهي ترفض بشدة المبدأ السائد في الحياة السياسية اليوم « الغاية تبرر الوسيلة » فكم تكون الحياة السياسية طاهرة بعيدة عن الكذب والدس لو التزم كل الأطراف السياسيين بما يلتزم به المسلم ؟

لو كان ذلك مبدءاً محترماً في حياتنا السياسية ما سمح طرف سياسي برمي مخالفيه بهذا الوصف « التستر بالدين » ففي ذلك تجاوز للأخلاق ومنطق العلم الذي أعرض في الحكم على الناس عن المنهج الاستبطاني الذي يقتضي أن يتسلل الانسان إلى أعماق الآخرين يبحث فيها عما يكمن فيها من نوايا وغايات وأغراض مبيتة يفسر بها سلوكهم .. أو يحكم عليهم من خلال حكمه على نفسه .. فقد انتهى العلم إلى رفض هذا المنهج العقيم لما فيه من إغراق في الذاتية واكتفى بملاحظة سلوك الآخرين الواقع تحت الملاحظة والتجربة للحكم عليهم .. وهذا تماما ما يقتضيه المنهج الإسلامي في الحكم على الناس . يقول الرسول عليه السلام : « أمرت أن أحكم بالظاهر .. » ولقد انتهر بشدة أحد أصحابه حكم بكفر رجل رغم نطقه بالشهادة محتجا بأنه ما نطق بها إلا حيلة فقال له -ﷺ- « هلا شققت على صدره ..؟ » .

فكم نحن متخلفون في حياتنا السياسية عن عصرنا ومناهجه العلمية وعن ديننا وطرائقه في الحكم .. وأمر آخر ..إنه إذا كانت الغاية من رمي الدعاة إلى الله بالتستر وراء الدين هي صرف الناس عنهم وتشويه سيرتهم وقطع الطريق عن دعوتهم فقد أخطأ الرماة

المرمى . وذلك أن الأمة الإسلامية وإن كانت على جهل كبير بدينها فلم يبلغ بها الجهل حد عدم التمييز بين الدين الحقيقي والدين المزيف .. إن الحلال بيّن والحرام بيّن .. فهناك قدر من المعلومات عن الدين يعرفه كل المسلمين .. فمن من المسلمين لا يعلم أن الصلاة والصوم من الواجبات الدينية وأن السرقة في كل أشكالها والكذب والزنى والخمر محرمات ؟. ومن ثم يسهل على الشعب التمييز بدقة بين المتسترين بالدين وبين المتدينين حقا من خلال موقفهم من هذه القيم الواضحة البينة .. إنه يرتاد المساجد ليعرف الأتقياء ويمر أمام الخمارات ونوادي القمار والمطاعم في رمضان ليلقي بنظرة شفقة على الأشقياء المتسترين بالدين .

الارتباط الرابع
العمل الإسلامي والرجعية والتأخر

تجتهد وسائل الاعلام في الربط بين نهضة الإسلام الحديثة وبين الرجعية والتأخر مستفيدة من اللبس الحاصل بين الإسلام في صورته الأصلية وهو عدل كله ورحمة وحرية ، شهد تطبيقه بذلك فانتقلت به شعوب بكاملها كالعرب والبربر والترك من المرحلة البدائية إلى وضع حضاري ممتاز .. وبين الدين في صورته الانحطاطية : زوايا وشطحات ودروشة واستغلال واستبداد .. متجاهلة أن الحركة الإسلامية إذ تدعو إلى الإسلام فإنما تدعو لتلك القيم الخالدة المجسدة في الدين المنزل لا في الدين التاريخي الذي لا تزال آثاره تسري في

الأمة مدعومة بكثير من المؤسسات والكيانات السياسية المتعفنة المتخمسة بالإسلام وهي بالقياس إليه لا شيء.

على أن التقدم والتأخر مفهومان نسبيان .. أنت متقدم أو متأخر بالقياس إلى من ؟ ونحن مبدئيا نرفض أن يكون الغرب هو المقياس للنموذج الإنساني المأمول .. ونعتبر أن التسليم به مقياسا جريمة كبرى لا في حق الإسلام فحسب بل في حق الإنسانية أيضا .. وأن ذلك ليس إلا تجسيداً لآثار الاستعمار الراسخة في أعماق أمتنا إلى اليوم .. نعم الغرب خطوة في الطريق يجب استيعاب مكاسبها .. ولكن إذا لم يقع إنقاذ تراث الإنسانية ومكاسبها من قبضته الجهنمية كان الخطوة الأخيرة في طريق الدمار .

وأمر آخر أن ربط حركات البعث الإسلامي بالتأخر يوحي بأن عزل الإسلام عن مراكز التوجيه الاجتماعي في محاولة لتقليد الغرب و « اللحاق بركب الحضارة » قد حقق آمال المسلمين أو شيئا منها في النهضة والرقي . وما يشهده العالم الإسلامي من عجز وارتباك في مواجهة مشكلاته الكبرى ليس إلا تعبيراً عن فشل حركة التغريب على الطريقة الليبرالية أو الاشتراكية في الآمال التي أطلقتها منذ بدايات هذا القرن على يد الكماليين والصفويين .. ثم على يد البعثيين والناصريين . ولولا ذلك ما وجد مبرر لتطلع المسلمين نحو البديل الذي ارتبطت أمجادهم وحضارتهم به .. الإسلام العظيم . فأي تقدم صنعه هؤلاء المتغربون لشعوبهم إلا أن نعد الفقر والبطالة والاستبداد والتبعية والضياع تقدماً ؟ وأي تقدم صنعه الشاه أو بوتو لبلاديهما

حتى يزعما ويزعم أنصارهما أنهما ذهبا ضحية تجربة تطوير خاضاها في بلاديهما ..؟

الارتباط الخامس :
بين العمل الإسلامي والعنف

وتستفيد وسائل الإعلام في هذا الصدد مما ترسب في العقل الجمعي للإنسانية من ذكريات الحروب الدينية في العصور الوسطى وما جرته من دمار وتهديد للحياة .. فتعمد إلى تحريك ذلك الرصيد من المخاوف لمواجهة الحركات الدينية وتصف عملها بأنه ضرب من الحرب المقدسة Guerre Sainte. فإذا كانت البشرية تبغض الحرب فإن هؤلاء يقدسونها !! وتستفيد اليوم أيضا من كثير من الأحكام بالإعدام الصادرة ضد مورطين في حماية أنظمة مستبدة في إيران وباكستان !! باعثة أمواجاً من الرعب والفزع العام مما يتربص بالإنسانية من خطر هذه الحركات !! جاعلة من أولئك الحكام المورطين وأعوانهم أبطالاً أسطورين ونماذج رائعة للقادة المتنورين !! ولكنهم ذهبوا ضحية تعصب الإسلاميين وحقدهم وطبيعتهم العدوانية العنيفة تجاه كل عمل تقدمي تطوري !!ولقد اتخذت الحملة ضد الباكستان وإيران شكل الحرب الصليبية الجديدة بالتعاون مع الأوضاع المحلية ، واعتبرت « جون افريك » (أن قضية بوتو تهم الضمير العالمي فقد اغتيل في ساحة الانسانية) فيا عجبا لهذا الضمير

العالمي في أي « جب » كان مسجونا عندما كان هؤلاء القادة « المتنورون » (بوتو ، هويدة ، الشاه) يعطون أمرهم للجيش باطلاق النار على الجماهير ويعطلون الدساتير والمحاكم ويملأون السجون بالمناضلين وأبطال الحرية ، ويعيثون في الأمة فسادا ؟ أين كان الضمير العالمي نائما – ولا يزال كذلك – تجاه قضايا الإنسانية الحقيقية ؟ هل يرضيه ما يرتكبه الصهاينة والطغاة في فلسطين وأثيوبيا وأفغانستان وجنوب أفريقيا والكمبودج والفلبين وتنزانيا ؟ أين الضمير العالمي والمسلمون دماؤهم على المشانق جرت وتجري أنهاراً في مصر وإيران والباكستان والفلبين وتايلاند وأفغانستان والتشاد وأوغندا .. ثم يتهمون بعد ذلك بالقتل والارهاب والعنف ؟

هل بلغ الإعلام في العالم الثالث والعالم الإسلامي حد التبعية الذليلة لأجهزة الغرب المشحونة بالحقد التاريخي ضد العروبة والإسلام ، والتي تتوجس خوفا على مصير رفاهها الذي قام على نهب ثروات المسلمين وشل قدراتهم وقطع الطريق أمام كل محاولة للتحرر الحقيقي والانطلاق الذاتي ؟

كلمـة أخيـرة

نحن إذ نشير إلى هذه الحرب المنظمة القائمة على أسس علمية مدروسة فليس قصدنا إيغار الصدور ضد أحد .. فالإسلام رحمة كله .

وإنما نحن ننبه المسلمين إلى خطر ما يحاك ضدهم من مؤامرات لغرس وتكريس التناقض بينهم وبين دينهم وبين حكامهم وشعوبهم فبدل أن تتجه قوى المسلمين حكاما ومحكومين إلى تلمس طريق الخلاص وردم الهوة التي حفرها الانحطاط بيننا وبين ديننا وزادها الغرب اتساعا لتكريس الانحطاط والتبعية ، وبدل أن يتجهوا جميعا إلى الذود عن كيان هذه الأمة المهدد وهو لا ينفصل بحال عن الإسلام الحقيقي . تتجه هذه القوى بتحريض من الغرب وأجهزته الاستعمارية والصهيونية إلى مزيد من التناقض والتناحر والاتهامات المتبادلة فلمصلحة من تردد أجهزة الاعلام في العالم الإسلامي نفس الاتهامات الغربية ضد التحرك الإسلامي ؟ أما الغرب ، أعني شعوبه فهو الآخر ضحية .. وسائل الإعلام التي تتحكم فيها القوى الرأسمالية الصهيونية الماركسية الحاقدة على كل ما هو إنساني . العاملة على المحافظة على حالة الضياع والاغتراب عن النفس والاستغلال التي يعيشها الإنسان الحديث .. هذه الأجهزة ترى اليوم في الإسلام الزاحف على ظلمات العالم ومظالمه يبددها وعلى النفوس الممزقة يعيد إليها الأمل واليقين .. وعلى الحضارة يعطيها بعدا إنسانياً .. ترى فيه أكبر خطر على مصالحها . فإلى متى تستمر الإنسانية تلهث وراء جلاديها وقطاع طريق سعادتها ..؟

وإلى متى تستمر وسائل الإعلام في تمثيل دور الساحر ؟

إننا واثقون أن الإسلام الذي أبطل مفعول سحرة فرعون وقوض عروش الأكاسرة والقياصرة لقادر على أن يكسر الأغلال التي تكبل البشرية اليوم .

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾[٥] .

---

(١) غافر .
(٢) البقرة ١٩١ .
(٣) البقرة ٢١٧ .
(٤) الأنفال ٦٣ .
(٥) آل عمران ٦٤ .

* التكوين العقائـــدي أوّلاً

- ☐ ما المقصود بالتكوين العقائدي على وجه التحديد ؟
- ☐ أولوية التكوين العقائدي بالنسبة لماذا ؟
- ☐ ضرورة أولوية التكوين العقائدي .

« ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »

حديث شريف

مقدمـة

حقيق على دعوة تتصدى لمهمة إعادة بناء الإنسان والعالم ، ودون ذلك عقبات كؤود وأخطار جسام ، ألّا تفتر لحظة عن التذكير بأسسها وأهدافها وخصائصها وطرائق الوصول إليها حتى لا ينسى أفرادها – لحظة – ما انبعثوا منذ انطلاقتهم لتحقيقه ودوافعهم إلى ذلك ، مهما تشعبت بهم الدروب وتضخمت الصعوبات وتكاثرت الضغوط وتألب الأعداء ، وحتى تضمن بقاءها ونقاءها وتطورها بعيدا عن الانكسارات والانحرافات في الفكر والسلوك ، ذات اليمين أو ذات الشمال ..

الفكـر والواقـع

الصراع بين الفلاسفة حول أولوية الفكر أو الواقع وأيهما تابع للآخر صراع غدا تقليديا .. فعلى حين يؤكد المثاليون سبق الفكر وأن الواقع صدى له يؤكد الماديون سبق الواقع وأن الفكر مرآة له .. أما الإسلام – فيما أفهم – فلا يرى لهذا الجدل مبررا إذ لا يوجد تناقض حقيقي بين هاتين المقولتين ولا ضرورة لرد أحداهما إلى

• مجلة المعرفة ع ٧ س ٥ – ٧٩/٧/٢٥ .

الأخرى إن الواقع (المادة) كالفكر قيمة أصلية في هذا الوجود .. ولكنّ الذي غفل عنه الفكر الغربي – فضلّ بسبب ذلك – هو قطعه للعلاقة الصميمة بين الفكر والواقع من جهة وبين المصدر الذي صدرا عنه وهو الله عز وجل من جهة أخرى إذ هما ليسا مستقلين عنه بل يتأثران به في صور مختلفة منها الوحي ، فالفكر يتأثر بالواقع ولكنه يتلقى – أيضا – تأثيرات علوية « الوحي .. الالهام » فيؤثر بدوره في الواقع ويرتقي به ويضفي عليه جلالا وطهرا .. كما أن الواقع بدوره قد يضغط على الفكر فيتجه في فهم الوحي اتجاهات شتى قد لا تخلو من انحراف إذا لم يكن هذا الفكر مشبعا بمفاهيم الوحي ومقاصده مدركا لأسرار لغته مهتديا بسنن الرجال الممتازين الذين تنزّل الوحي على قلوبهم فكانوا أكثر به التحاما .. مستوعبا التجربة التاريخية في فهم التنزيل الحكيم فيغدو فكرا عقائديا ، يتحرك في الواقع لينشئ الشخصية الإسلامية والحضارة الإسلامية ، بدل أن يكون مجرد مرآة ينعكس عليها الواقع ويوجهها .. في الحديث « يولد الولد على الفطرة فأبواه (الواقع) يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » . ورغم ما للواقع من ثقل وتأثير من جهة بالواقع جهة أخرى بالوحي فأيهما غلب عليها انطبعت بطابعه .

إن الواقع يرتقي بقدر تشبع الفكر وامتصاصه لمفاهيم الوحي ويتدهور بقدر انفصاله أو انحرافه عنه .. كما أن الفكر يجمح إلى المثالية والخيال كلما انفصل عن الواقع فينحط وهو يتردى في الابتذال ويغدو عدا للاندفاعات الغريزية والعدوانية كلما انقطع عن مدد

الوحي وكأن عمله خارج ميدان الزمان والمكان .. ومن هنا تبرز أهمية التكوين العقائدي في تحديد الشخصية الإسلامية على اعتبار العقيدة محور ومحرك هذه الشخصية ومنطلقا لتغيير السلوك والواقع .. رغم ما للسلوك والواقع من تأثير إيجابي أو سلبي في العضوية وتوجيهها ، في الحديث : « إن السجد مضغة .. الخ الحديث » .

ما المقصود بالتكوين العقائدي على وجه التحديد ؟

- التكوين الذي يحدد المفاهيم الأساسية للعقائد الإسلامية .. مثل مفهوم الألوهية والنبوّة والبعث ، ويتولى غرسها في أعماق النفس وتعهدها بالرعاية حتى لا تذوي
- التكوين الذي يحدد منزلة الإنسان في الوجود وعلاقة العقل بالوحي
- التكوين الذي يعدّ سلّما للأولّيات بين القيم مثل قيمة العلم . والعمل ، والتقوى والتفكير
- التكوين الذي يحدد الأسس الضرورية للحياة الإسلامية في مختلف جوانبها السياسة .. الاقتصاد .
- التكوين الذي يحدد موقف المسلم من الواقع بجميع تعقداته وعناصره .. ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي .
- التكوين الذي يزود الفرد بالبواعث الضرورية للاقبال على المعرفة فى نهم وشغف .
- التكوين الذي يحدد المفاهيم الأساسية للحركة الإسلامية .. الجماعة .. الشورى .. السمع والطاعة ..

أولوية التكوين العقائدي بالنسبة لماذا ؟

أ : بالنسبة للتكوين الشرعي التفصيلي الذي يحتاج لنفير طائفة خاصة من المسلمين .

ب : بالنسبة للتكوين الثقافي المتخصص الذي يجعل المسلمين مستوعبين لثقافة عصرهم ولتراث الإنسانية في مختلف جوانبه وأبعاده الأدبية ، الفلسفية ، الاقتصادية والسياسية ..

ج : التكوين السياسي الذي يجعل المسلمين مطلعين على دقائق وتفاصيل المذاهب والتكتلات والأحزاب السياسية .. غير أن هذا التكوين الثقافي والسياسي يحتاج هو الآخر إلى أن يفرّغ له عدد من المسلمين قد رسخت أقدامهم في العلوم الشرعية ومقاصد الشريعة ، حتى يأمنوا على أنفسهم الضلال .. ومن خلال دراساتهم يتمكن المسلمون من الاطلاع على التراث الثقافي والحياة السياسية لدى الشعوب غير الإسلامية .. وإن عدم مراعاة هذه القاعدة – التي نبه إليها ابن خلدون – في الاطلاع على التراث الثقافي للحضارات الأخرى أوقع المسلمين ولا يزال يوقعهم في سلسلة من الانحرافات والتمزقات وألوان من الضياع .. وتلك لعمري جريمة الجهاز التربوي في العالم الإسلامي الذي جعل شعار التقدم (بزعمه هو) التفتح على الثقافات الأخرى قبل أن يتم تأصيل الفرد في بيئته الثقافية فكان ذلك سبب ما نشاهده من ضياع وانبتات وانفلات .

ضرورة أولوية التكوين العقائدي

١ أثره الكبير على الشخصية الفردية فكراً وسلوكاً

إن الفرد المسلم يتعرض اليوم في إطار هذه المجتمعات الجاهلية (التي لا تقوم على أسس الإسلام وقيمه ولا تخضع لنظمه وتعاليمه) يتعرض لضغوط كبيرة فهو ممزق بين واقع يزخر بكل أنواع الإغراءات وبين مثل إسلامية تأبى عليه الانسياق . إن حاله حال السمكة التي تحيا خارج الماء .. وهو من ناحية أخرى بحكم سيطرة الإعلام الجاهلي والفكر والنظم الجاهلية يتعرض إلى عملية ترويض دقيقة تشبه عملية « غسل المخ » ذلك أن وسائل الإعلام بما تملكه من طاقات هائلة على التأثير تعمل بدأب محركة أوتاراً مختلفة من نفس المسلم لتنتهي به إلى حالة من الشك في نفسه وإخوانه ودينه والجماعات الإسلامية العاملة وتاريخها وعلماء الإسلام الأتقياء المجاهدين ، واضعة بينه وبينهم حاجزا من الريبة والشك ، وفي الوقت نفسه تعمل على تذويب الحواجز النفسية التي صنعها الإسلام وتراثه الثقافي وتربيته بين المسلمين وبقية الثقافات والتجمعات والقيم والمذاهب الجاهلية .. ولربما بلغت عملية الترويض هذه بالبعض إلى حالة أصبح معها ينفر أيما نفور من مفكري الإسلام وجماعات المسلمين ، وينشرح مقابل ذلك صدره إلى ثقافة الغرب ومذاهبه

وأحزابه اليمينية أو اليسارية.. وتراه - في أحسن الحالات - يجهد نفسه في تقريب مفاهيم الإسلام إلى مفاهيم الغرب كما كان يفعل أتباع الفلسفة اليونانية من المسلمين إذ جعلوا همهم تأكيد ما بين الفلسفة والشريعة من أوجه الاتصال.

ولقد استطاعت أجهزة الدعاية الغربية - يمينها ويسارها - أن تزلزل كثيراً من المسلمين وأن تجندهم دون أن يشعروا لمحاربة المبادئ التي نشئوا عليها والتنكر للعلماء والمفكرين الذين بهم اهتدوا والأعراض عن الجماعات التي في حضنها تربوا فيكون حالهم كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا.

إن الدعوة الإسلامية المعاصرة، قد استطاعت بفضل الله - رغم كل الصعوبات والعراقيل والمكر الظاهر والخفي لقوى الغرب العتيدة وامتداداتها في العالم الإسلامي - أن تجتذب إلى صف الإسلام وبيوت الله أفواجا غفيرة من أبناء هذه الأمة وخاصة من فئة الشباب التي انتشلتها الدعوة الإسلامية من براثن الغرب ومتاهاته حيث كانت تبحث عن ذاتها فما وجدت غير السراب فلما سمعت النداء اتجهت إليه بقوة.. لقد راعها ما في الإسلام من قيم الحرية والعدل والمساواة والقوة والرحمة والتقدم.. ولكن كان الحماس للإسلام هو الغالب على تعامل الجيل الجديد مع الإسلام حتى إذا انحسرت موجة الحماس قليلا لم يجد الشباب المسلم من يسدد خطاه ويعمق تصوراته العقائدية ومفاهيمه عن الإسلام ويرغبه في الاقبال على علوم الشريعة والتبحر

فيها قبل التفتح على الثقافات الأجنبية .. مما يجعل هذا الشباب معرضا للانحرافات على مستوى السلوك ومستوى الفكر لأنه في الوقت الذي نجد فيه أنفسنا وسط عالم يسيطر عليه الغرب بتقنياته وأساليبه في الحياة وفلسفاته ونهرك حجم التناقضات الصريحة بين الأنموذج الإسلامي للحياة والأنموذج الغربي نجد أنفسنا مضطرين للتعامل مع الأنموذج الغربي ، المسيطر على حياتنا .. ومن هنا تبرز أهمية التكوين العقائدي في صيانة الشخصية الإسلامية من الذوبان في أتون الغرب وحماية هذا الجيل المقبل على المساجد من الانحرافات اليمينية أو اليسارية أو الباطنية أو الاندفاعية الهوجاء ، ولقد نبه كما – المحنا – العلامة ابن خلدون إلى خطر اطلاع الشباب على الفلسفة قبل التعمق في علوم الشرع .

العمق الروحي والحضارة

لقد كشف المفكر الكبير مالك بن نبي رحمه الله أهمية البعد الروحي في تكوين الحضارة وذلك أن الحضارة تمرّ بمراحل ثلاث : مرحلة الروح ومرحلة العقل ومرحلة الغريزة ، فالجيل الأول من بناة الحضارة تسيطر على روحه فكرة أو قيمة أو عقيدة سيطرة تامة إلى درجة الذوبان فيها مما يجعل كل طاقات الانسان تتجه إلى البناء والعطاء الحضاري .. وفي الجيل الثاني أو المرحلة الثانية ، مرحلة العقل ، تنمو العلوم والمعارف ويتضخم العمران وتوضع الفكرة موضع النقاش فتكثر المذاهب والفرق وتستيقظ الغرائز التي كانت محكومة بطاقة الروح وتقوى وتتجه إلى فرض نفسها على الشخصية

لأن العقل أعجز من أن يسيطر عليها وآية ذلك ما نشاهده في الحضارة المعاصرة من اقتران بين الازدهار العمراني والانطلاق الغريزي (الجنس ، الظلم ، الحرب ، الاستغلال) لما تعانيه الروح من ضعف فتضعف الإرادة ويعجز العقل عن مراقبة السلوك .. حتى إذا تم للغرائز تحررها أذنت شمس الحضارة بالأفول ومن هنا كانت ضرورة تعميق التكوين الروحي (العقائدي) لدى هذا الجيل المحاط بالفتنة من كل مكان وإعطائه الأولوية على أي تكوين آخر ، ذلك أنه أشد خطراً علينا من الغزو الفكري الذي يشنه أعداؤنا ضدنا لتشكيكنا في هويتنا الإسلامية ، هذا الأسلوب الغربي في الحياة الذي فرض علينا والذي يملك وسائل متنوعة لإيقاظ وإطلاق الغرائز والاندفاعات .. مضعفا طاقات الروح والإرادة والمقاومة في شبابنا فيدمره شر تدمير ، ولن ينجيه من هذا المصير المهلك تفوّق في المحاكمات المنطقية وقدرة على التحليل السياسي وسعة اطلاع على الثقافات العالمية .. إنه لا بد من إحكام البناء العقائدي وتعميق الروابط الروحية بين الإنسان وربه (الصلاة ، الذكر ، التلاوة) وبين الانسان وأخيه الإنسان (الجماعة) « عليكم بالجماعة من شذ عن الجماعة شذ إلى النار » .

ب – التكوين العقائدي وسلامة الجماعة

إن ضعف التكوين العقائدي المؤدي إلى ضعف الروح ووهن الإرادة وانطلاق القوى الحيوانية في الإنسان لا يقتصر خطره على

الفرد فتضعف عنده قوى المقاومة وتزل به الأقدام وتصاب شخصيته بالانحلال ، بل يتجاوز خطره إلى الجماعة فتضعف قدرتها على توجيه الأفراد بسبب نمو النزعات الفردية والتمركز حول الذات وحب التميز والظهور وروح التمرد والميل عن حياة الجد اللائقة بداعٍ يحمل هموم الإسلام ويتصدى لتصحيح مسار الإنسانية وإعادة بناء الحياة .. الميل عن ذلك إلى حياة الهزل والميوعة والتنطع والتمرد والحط من قيمة الدعوة وأعلامها وأئمة الهدى من السلف الصالح . وذلك هو مصير دعوة تغفل تعميق الأسس العقائدية وتمتين الأواصر الروحية لدى أفرادها .. فالقرآن المدني وإن كان موضوعه الأساسي التشريع للمجتمع الجديد في المدينة وبناء الدولة الإسلامية فإنه لم يهمل قط التذكير بالأسس والمبادئ العقائدية وربط أحداث الحياة وتشريعات المجتمع بتلك الأسس .. ففي تلك الأسس حياة تلك التشريعات وسندها الدائم وفيها سر صلاح الفرد والجماعة .. فلا بد إذن من مجاهدة مستمرة ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ .

الفكـــر الإســـلامي
بين المثاليـة والواقع

- ☐ قصور الحركة الإسلامية .
- ☐ نتائج العقلية المثالية .
- ☐ المنهج القرآني

الفكــر الإســلامي
بينْ المثالية والواقعية

المتأمل في تجربة الحركة الإسلامية المعاصرة في المشرق خلال نصف القرن الأخير وبالمغرب خلال السنوات العشر المنصرمة يستطيع بكل يسر أن يلمس مدى تأثيرها في توجيه المجتمعات الإسلامية نحو تعاليم الإسلام ولفت نظرهم إلى ما في هذه التعاليم من خير وصلاح وقوة وعدل ومنطق وتفوق على سائر المناهج والمذاهب والفلسفات .. ولقد كان لهذا التأثير الدور الفعال في تحرير عقول المسلمين وأرواحهم من تراث عصر الانحطاط وانحرافاته في التعبد والاعتقاد والسلوك وفي تحريرهم في نفس الوقت من بعض الآثار المدمرة للغزو الفكري والروحي للحضارة الغربية ذلك الغزو الشرس الذي أوشك أن يحدث قطيعة تامة بين أمتنا وماضيها وعقائدها ويعصف بعزتها ويذيب كيانها في بوتقته لولا أن تدارك الله الأمة برجال أفذاذ جاهدوا جهاداً كبيراً لرد الغارة الشرسة على العالم الإسلامي أمثال : الشيخ رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب وأبي الأعلى المودوي ومالك بن نبي رضي الله عنهم . فاستطاعوا على قلة وسائلهم أن يتصدوا للهجمة الغربية الفكرية التي صاحبت وأعقبت

---

٥ صحيفة الوحدة التونسية ٢٩ - ٥ - ٨٢ و٥ - ٦ - ٨٢ .

الهجمة العسكرية وأن **يعيدوا للإسلام اعتباره** لدى قطاع واسع من هذا الجيل ويكشفوا زيف حضارة الغرب وخواء مضامينها من الإنسانية رغم تفوقها التقني وهابوا بالأمة إلى ضرورة الاعتصام بالإسلام عقيدة وشريعة وثقافة ومنهاجاً للحياة وأيديولوجية حضارية تحرّرية . وبضرورة وعيها بدورها الرسالي في العالم **وأن مقامها فيه مقام الأمر والنهي لا التبعية والذيلية ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾** وهي مدعوة اليوم في عالم الضياع والاستغلال والجور إلى تحمل مسئوليتها في إنقاذ العالم مما يعانيه من اغتراب وظلم وتدمير تحت قيادة الغرب بجميع أوجهه الرأسمالية والاشتراكية .. فلقد انكشف زيف هذه الحضارة وشعاراتها المضللة في الحرية والمساواة **وظهر واضحا فشلها رغم ضخامة وسائلها في تحقيق علاقات إنسانية تحكمها مبادئ العدل والمساواة والحق** وغدت حياة الأدغال أرحم بالإنسان من الحياة في ظل مدنية الغرب .. فلا بد لهذه الأمة من تحمل مسئوليتها أمام الله في الشهادة على الناس بإظهار ما في دعوة الإسلام من حق وعدل ورحمة وما تتضمنه هذه الحضارة من زيف وخواء وتدمير للإنسانية وللعلاقات البشرية ثم يبذل أقصى الجهد الواعي المنظم **لاستئناف الحياة الإسلامية** والعودة بالإنسان إلى ذاته ، إلى فطرته ، إلى الطبيعة التي فطره الله عليها والتي لن تجد تعبيرها الكامل في غير هذا الدين لأنه ينحدر وإياها من مشكاة واحدة فالذي خلق الإنسان هو الذي أنزل القرآن ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا

يعلمون ﴾ (٣٠ – الروم) . إنه لا تبرأ ذمة هذه الأمة أمام ربها ثم أمام البشرية قاطبة حتى تبذل أقصى الجهد للشهادة على الناس بإقامة نظام الفطرة الذي فطر الله عليه الناس ، نظام الخلافة الإسلامية (الخلافة العالمية) على أساس التوحيد والعدل .

قصور الحركة الإسلامية :

والحركة الإسلامية ولئن حققت إنجازات عظيمة في محاولتها تحرير لأمة من تراث الانحطاط وآثار الغزو الغربي المدمر فقد ظلت بعيدة عن تحقيق هذا الهدف (إقامة شرع الله في الأرض) إذا **استثنينا التجربة الإيرانية** الجديرة بكل تقدير **رغم ما شابها ولا يزال من ارتباك** ورغم الظروف العدائية المحيطة بالحركة الإسلامية التي يوقد نيرانها الغرب وعملاؤه في المنطقة **ومن طرف الأجهزة الدينية التقليدية التي لم تقدر بعد على مغادرة مواقع الانحطاط** وتفهم منطلقات الحركة الإسلامية وأهدافها السامية ، فإن المسئولية الكبرى في قصور الحركة الإسلامية عن إدراك غايتها في تحقيق طموح الأمة في معانقة ذاتها والالتحام بدينها وتاريخها يعود إلى أسباب داخلية للحركة الإسلامية إلى بيئتها الذاتية .. إنها تعود أساساً إلى نمط التفكير السائد داخل هذه الحركة والذي لا يزال رغم المحاولات المتكررة ونجاحه الجزئي مشبعاً بمثالية عصر الانحطاط لا يتصل بالواقع إلا من خلال نصوص تجمد فهمها على ضوء مقولات ومفاهيم **تبلورت في عصور أقل ما يقال فيها أنها تختلف إلى حد كبير عن عصرنا** .. وفي ظروف تكاد تكون مباينة تماما لظروفنا .. فغدا المسلم بهذه العقلية المثالية

مصابا بما يشبه العطالة في فهم واقعه واستيعاب تطوراته والقوى المحركة لذلك الواقع والطاقات المختزنة فيه فكان من الطبيعي أن يعجز عن تفجير تلك الطاقات والتعامل مع تلك القوى وتحديد سياسته للتعامل معها وتسخيرها . ونكتفي للتدليل على عجز المسلم في استيعاب واقعه المتطور وما يحتويه من طاقات وفشله في تسخير تلك الطاقات بإيراد الأمثلة التالية :

مثال أول : القوى العاملة أو الطبقة العاملة :

فهذه الفئة التي غدت تمثل مشكلا ضخما لكثير من الأنظمة الرأسمالية وحتى الاشتراكية وتتحكم في مصائر الأنظمة والسياسات ظل الإسلاميون بعيدين عن التأثير فيها وتسخيرها تاركين المجال فسيحا لأصحاب الأيديولوجيات اليمينية أو اليسارية خاصة للتحكم في هذا القطاع عن طريق تبني مشكلاته والدفاع عنه . ويعود سبب ضعف تأثير الإسلاميين في هذا القطاع إلى عدم وعيهم بمشكلاته ذات الطبيعة الاجتماعية السياسية قبل أن تكون عقائدية أخلاقية .. فأتى للإسلاميين أن يتفاعلوا مع هذا القطاع وهم يكتفون في تناول كل المشكلات بالطرح العقائدي الأخلاقي ولا يتركون للقضية الاجتماعية غير مجال ضيق يكتفون فيه بترديد شعارات العدالة الاجتماعية دون تحديد لمضامين هذا الشعار .. **فكان من الطبيعي أن تكون الاستجابة لنداءاتهم وسط العمال محدودة لأنهم يطرحون عليهم مشكلات غير مشكلاتهم** .. فلقد تطورت مشكلات المجتمعات وهم لا يتطورون فكأنهم ينادون الناس من مكان بعيد .

ومثال ثان : القطاع النسائي

وتأثير هذا القطاع على مصير المجتمعات لا تخفى أهميته ، فيكفي أن نعلم أن نصف المجتمع على الأقل نساء والنصف الآخر يتربى بين أحضانهن ، لندرك الأهمية القصوى لهذا القطاع الذي ظل تفاعل الإسلاميين معه محدوداً لنفس السبب وهو عدم الوعي بما لاقته وتلاقيه النساء خلال قرون الانحطاط الطويلة من مهانات ومظالم وتضييق لآفاقها الإنسانية ولدورها في الحياة والحضارة ، وطمس لشخصيتها وتحويلها إلى شيء إلى متاع .. كل ذلك باسم الإسلام والإسلام من ذلك براء .. حتى إذا جاء الغزو الغربي يجرف في تياره المدمر الأخضر واليابس من قيمنا مطيحا بكياننا الاجتماعي حاملا قيما خُلُبا : قيم الحرية والمساواة ، كان من الطبيعي أن يكون تفاعل المرأة وهي ترزح تحت أشكال شتى من المظالم - مع مغريات الغرب وكأنّ تلك المظالم كانت تجد مبررها في الإسلام ، إسلام الزيف ، خاصة إزاء صمت « رجال الدين » عن تلك المظالم ، وكان من الطبيعي أن تنطلق الثورة ضد تلك الأوضاع البالية من خارج الإسلام وأن توجه المعركة ضده وأن يرسخ في ذهن المرأة أن الإسلام لا يعني بالنسبة إليها غير الحجاب وهذا يعني ملازمة البيت وإمتاع الرجل ، فلا علم ولا حرية ولا مشاركة ، في صنع المصير الوطني والإنساني وبالتالي فلا سبيل للحرية والعلم وإثبات الذات غير التمرد على الإسلام وآدابه كالحجاب ومحاكاة الغرب في حلوه ومرّه حتى إذا انطلقت الحركة الإسلامية وجدت نفسها أمام **مجتمع مائل منحل فلم تر منه**

غير سطحه: العري والتبرج والخروج من البيت والاختلاط. فثارت ثائرتها ضد هذه المظاهر، داعية إلى العودة إلى الإسلام، تاركة انطباعاً واضحاً عند المرأة أن العودة للإسلام لا تعني غير العودة إلى أوضاع الانحطاط ووضعية الحريم، وذوبان الشخصية، والحرمان من حقها في تقرير مصيرها.. فكان من الطبيعي أن لا يلاقي طرح الإسلاميين الأخلاقي لقضية المرأة –على أنها قضية عري وتبرج واختلاط وعمل خارج البيت– غير الرفض واللا مبالاة، بل المقاومة والانحياز إلى صف خصوم الدعوة الإسلامية ممن عزفوا ولازالوا على أوتار «تحرير المرأة».. وهو شعار صحيح شريطة تحديد مضمونه تحديداً صحيحاً.

إن الطرح الاجتماعي الفلسفي لقضية المرأة ينتهي إلى أن قضية المرأة أبعد من أن تكون قضية تبرج وعري واختلاط، إنها قضية اغتراب وظلم واستعباد، إنها قضية إنسان سلبه الانحطاط المغلّف بالدين إنسانيته، وحقه في تقرير مصيره، وحوله إلى شيء، إلى متاع. وجاء الغرب بفلسفته المادية يزعم تحريره، فما زاده إلا استعباداً. وكل الذي فعله أنه حول مواقع الاستعباد، فبعد أن كانت المرأة مستعبدة لرجل أو لأسرة غدت في ظل فلسفة المادة والربح.. مستعبدة للمؤسسات الكبرى الرأسمالية والإعلامية والسياسة.. تتاجر بجسدها فتجعل منه دمية جميلة تُزيَّن بها واجهات المحلات، وأداة للإشهار وترويج البضائع والدعاية لرجال السياسة. فما أحوج المرأة لحركة تحرّر تعيدها إلى ذاتها، إلى فطرتها كأمينة على تراث الإنسانية، ورفيقة جهاد للرجل. تحرر نفسها والرجل عبر حركة الجهاد، وضد قوى

الظلم والاستغلال في العالم، تحرر نفسها من كل سلطان وتبعية إلا لله ربها.

مثال ثالث: الطاقة الجمالية

إن الإحساس الجمالي من أهم خصائص الإنسان، ويعبر الإنسان عن هذا الإحساس بطرق مختلفة اصطلح على تسميتها بالفنون الجميلة.. صوتاً كانت أو صورة أو لوناً.. ومع تطور وسائل التقنية وتعددّ المشكلات الإنسانية، وشعور الإنسان بالمأساة في هذا العصر، وتطاحن الأيدلوجيات، احتلت الفنون الجميلة أهمية بالغة على الصعيد الاقتصادي كمصدر أساسي لجني المال، وعلى الصعيد الفكري والعقائدي السياسي كخير أداة للدعاية الحزبية والعقائدية لتخدير الجماهير أو لتوعيتها وتثويرها. ورغم الأهمية البالغة التي أولاها الإسلام للجمال بكل معانيه، واعتباره صفة لله وسبيلاً إلى الإيمان بالصانع المبدع وعبادته.. **فإن هذه الطاقة الكبرى لا تزال معطلة في الحركة الإسلامية**.. لا يُعنى بتربيتها على اعتبار أن الاحساس الجمالي مقوم أساسي من مقومات الشخصية الإسلامية.. بل لا تزال الحركة معرضة عن كثير من الفنون والآداب كالمسرح والسينما والرسم والغناء.. والتصوير، دون أي محاولة للتنظير وبيان الحد الفاصل بين ما يحلّ وما يحرم من الفنون، وتحريرها من المضامين الإلحادية المائعة، وتجذيرها في تراثنا وقيمنا حتى تغدو سبلاً ومحاريب لعبادة الله وتنمية الاحساس الجمالي لدى الجماهير وهو قرين الإيمان، وتوعيتها بقضايا

البؤساء والمستضعفين ودفعها إلى الثورة ضد الظلم من منطلق الإيمان. فكم هي حاجة الدعوة الإسلامية ماسة إلى روّاد عظماء يستوعبون التجربة الفنية المعاصرة، كل في ميدانه، ويعملون على ترويضها وتحريرها وتجذيرها وتسخيرها في إبداع فن إسلامي أصيل ومعاصر.. إنه لا مناص من ذلك إذا أردنا لنور الإسلام أن يتسلل إلى القلوب ينيرها ويحركها ويحررها مما ران عليها من غشاوة الجاهلية المعاصرة، ويعبئها بقيم الإسلام التحريرية العظيمة لتتعالى على كافة الاهتمامات والأيديولوجيات، تتصل بالله العدل القوي الرحيم، تستمد منه سبحانه طاقات لا تنفد من أجل تحرير البشرية من سيطرة الغرب ومهاناته، وإقامة حضارة إنسانية مستقبلية على أساس العدل والتوحيد. فيا له من عمل عظيم لو أنه له رجال يقتحمون هذا العالم بفنونه وآدابه وعلومه ومؤسساته، ويستوعبون ويعدّلون أو ينقصون ويرسمون الطريق إلى عالم جديد، يفعلون ذلك بجرأة وإيمان موسى لا مخدّر بني إسرائيل وجبنهم ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون﴾ فأجاب رجلان منهم: ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾.

وفرق بين عقلية الاقتحام وعقلية الهروب.

نتائج العقلية المثالية

والعقلية المثالية التي ينظر الإسلاميون من خلالها إلى واقعهم هي إحدى الأسباب الرئيسية المسئولة عن عجزهم في استيعاب ذلك

الواقع وطاقاته المتحركة، وتوليد فكر إسلامي يقدم للمسلم وعياً صحيحاً بذلك الواقع، وقدرة على تسخير طاقاته لصالح مشروعه الإسلامي الحضاري.. تلك العقلية المنبتة عن الواقع هي المسئولة عن الوضعية النخبوية التي آلت إليها كثير من الحركات الإسلامية. فما عاد يلتفّ حولها غير مجموعات من المثقفين ثقافة متوسطة تظل معزولة عن واقع الجماهير لعدم استيعابها لمشكلات تلك الجماهير. وما تنجح في استقطابه من الجماهير تعجز عن توظيفه وتأطيره في مؤسسات المجتمع الثقافية والاجتماعية، وتحويل تلك المؤسسات إلى مواقع ضغط لصالح الإسلام. وبالتالي تظل القاعدة الإسلامية مهما كانت واسعة ضئيلة الفاعالية والتأثير، لأن تكوينها الثقافي يعزلها عن وسطها ويحرمها من فهمه، والقدرة على التعامل معه، وتطويره تدريجياً بأن تطرح مشكلات غير التي يحس بها الناس ويتألمون منها. والحركة الإسلامية في تونس -إدراكاً منها لطبيعة الإسلام الواقعية- تجد نفسها مدفوعة إلى ضرورة التخلص من الأطروحات المثالية للإسلام ولمنهج الدعوة إليه. فإذا كان الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان، فإن هذا الإسلام الخالد لن يقدر على التعامل مع واقع معين والتأثير فيه، وإحداث الانقلاب المطلوب في مؤسساته وقيمه مالم يتفاعل معه ويولي اهتماماً كبيراً لخصوصياته ومكوناته.. وقديماً أكد فقهاؤنا على أن للعرف اعتباره كأصل من أصول التشريع.

المنهج القرآني ..

إن القرآن الكريم، رغم طبيعته المتجاوزة للزمان والمكان، نستطيع من خلاله أن نستمد صورة واضحة عن حياة العرب في عصر النزول من حيث معتقداتهم ومشاكلهم. وكان هذا المنهج الواقعي للقرآن ضرورياً حتى يتم التفاعل بينه وبين القوم الذين قدر الله أن تكون انطلاقة هذا الدين على أيديهم .. فهو إذ يخاطبهم لا ينطلق بهم من عموميات ومجردات، وأنما ينطلق من واقع جغرافي وسياسي واقتصادي وعقائدي وثقافي وتاريخي يعيشونه ويشاهدونه ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾. ثم يُقيّم ذلك الواقع بعد وصفه بدقة، فيناقش بالحجة البينة في الرفض أو التعديل، ويقدم لهم البديل، وينتهي بهم من الحدث السياسي أو العقائدي أو الاجتماعي المحدد إلى إقرار القواعد والقيم والقوانين الصالحة لكل زمان ومكان .. وذلك هو النهج العلمي التجريبي، المنهج الاستقرائي الذي ينطلق من الواقع في جزئياته لينتهي إلى القانون الذي يفسر تلك الجزئيات ويكشف عن قانونها المنظم لها الرابط بينها ..

هذا المنهج التجريبي القرآني تخلى عنه المسلمون بفعل عوامل كثيرة؛ سياسية، وثقافية، واقتصادية. واستبدلوه بالمنهج اليوناني التجريدي الذي ينطلق من المجردات والعموميات ليحاكم الواقع إليها، وينظر إليه من خلاله .. وهذا المنهج لئن كان صالحاً في دراسة العلوم النظرية كالرياضيات، فقد كان ضرره بالغاً في دراسة حوادث الطبيعة

وظواهر النفس والمجتمع، إذ فصل العقل عن الواقع.. وحول الثقافة الإسلامية إلى ضروب من الجدل العقيم، وأحدث قطيعة خطيرة بين الواقع والعقل المسلم.

ولكي تزداد يقيناً بما أقول، افتح مجلة من مجلات الدعوة الإسلامية ثم حاول من خلالها أن تتعرف على طبيعة البيئة والظروف السياسية والاجتماعية للبلد الذي تصدر فيه. إنك ربما تعجز عن معرفة حتى بلد الصدور إذا لم تستعن بقراءة العناوين.. وإذا حدثتك عن أطراف من الواقع، فلن تتجاوز التنديد بالجوانب اللا أخلاقية في ذلك البلد كالعري والفساد.. وأما القضايا التي تتألم منها الجماهير في ذلك البلد كقضايا البطالة والسكن والاستغلال والاستبداد وسوء الخدمات الصحية والمواصلات ووضعية الطفولة والمرأة (عدا قضية العراء والسفور) فقد غدت من اختصاص الحركات اليسارية وغدا الحديث عنها في الأدبيات الإسلامية هرتقة وانحرافا في المنهج..

فلابد أن يعود العقل المسلم إلى واقعه يدرس ويحلل أوضاعه، ويتعرف على مشكلاته، لا ليكون أسير ذلك الواقع وعبداً له يتخذه إماماً وقائداً له يضغط على عقله وشعوره، ويدفعه إلى اعتباره الأصل والإسلام تابعاً، كلا، فهذا الدين جاء ليقود الحياة ويكون للبشرية إماماً وللحق والباطل والخير والشر ميزاناً، بل ليتخذ من ذلك الواقع منطلقه في الدعوة فيقدم الإسلام على أنه أنفع وأوفق حل لما يعيش في الواقع من مشكلات.. إن عقائد الإسلام وتعاليمه لن تقبلها الجماهير وتتحمس لها وتضحي من أجلها، ما لم ترتبط بآمالها في حل

مشكلاتها تلك العقائد والتعاليم: وإلا غدت دعوة الإسلام تجذيفاً في الصحراء وضرباً للحديد وهو بارد. فما هناك بد للداعي الناجح من استيعاب مشكلات الواقع وتقديم الحجة القاطعة أن الإسلام هو المنهاج الأقوم للعلاج وتجسيد الآمال. فلابد إذاً من أن يعيد إلى الواقع ثقله في الفكر الإسلامي، حتى يكون هذا الفكر الإسلامي واقعياً، ولا يكون وليداً لتأملات مجردة في النصوص. بل يكون وليداً لتفاعل عميق بين الإسلام والواقع المعاش الذي تعمل فيه الدعوة، فيتولد من ذلك التفاعل فكر إسلامي مرتبط ببيئة معينة وظروف معينة، ولئن كان صالحاً في التأثير في تلك البيئة وترشيد الدعوة الإسلامية فيها وإحداث عملية التحول في اتجاه إقامة مجتمع ودول الإسلام، فليس ضرورياً أن يكون صالحاً إذا انتقل إلى بيئة أخرى، بل قد يساهم، إذا لم تُجر عليه التعديلات الضرورية، في تعطيل سير الدعوة وتعتيم العقول وإصابتها بالشلل. ومن هذا المنطلق ترى الحركة الإسلامية في تونس ضرورة إعادة النظر في عدة منطلقات فكرية إسلامية عوملت في السبعينات على أنها من قبيل المسلمات والبديهيات الإسلامية، ليميّز ما هو إسلامي في ذاته فيُتلقى بالقبول. وما هو مفهومات واجتهادات في فهم الإسلام ومنهاج العمل الإسلامي – فرضت نفسها لسبب أو لآخر على المسلمين ردحاً من الزمن، وعوملت على أنها الإسلام، وأن الخروج عنها أو المس بها هو اعتداء على الإسلام، وهي في الحق ليست كذلك في جوانب كثيرة منها – فما ينبغي أن ترقى لهذه الدرجة أياً كانت مكانة الرجال الذين صدرت عنهم. وثابت أن ذلك التفاعل ضروري بين الإسلام وواقعنا التونسي والمغربي لتوليد فكر إسلامي في

تونس، وعلى مستوى مغربنا، حتى تكون لنا القدرة على فهم مشكلات هذا الواقع، وتقديم الحلول الإسلامية الناجعة له، وتفجير الطاقات وتوظيفها لصالح إنجاز المشروع الحضاري الإسلامي في هذه المنطقة.

• الإســـلام والعنـــف

- ☐ ماذا نفهم من الإسلام ؟
- ☐ مبررات الدعوة للإسلام في مجتمعنا
- ☐ منهاج الدعوة إلى الإسلام
- ☐ مسألة الجهاد
- ☐ الاتجاه الإسلامي والعنف
- ☐ صمود ضد الاستدراج إلى العنف

مقدمـــة :

كثر الحديث في الفترة الأخيرة من تطور الأحداث في تونس عن « الاتجاه الإسلامي » ودوره فيما جد من حوادث عنف على الساحة الجامعية والتلميذية، وحرصاً منا على إنارة الرأي العام وإزالة لكل التباس وظن وإثم، وإخراجاً للقضية من مجال المزايدات والتوظيف السياسي نحب لقرائنا الكرام أن يتابعوا بانتباه هذا المقال التوضيحي .

على اعتبار أن الاتجاه الإسلامي حركة تغيير شامل للواقع بالإسلام لبناء مجتمع إسلامي ، فلا مناص لكي نحدد موقفه من قضية العنف أن نحدد نظرته للإسلام، ولمنهاج التغيير كما مارسه الأنبياء عليهم السلام، وللواقع الذي هو مجال هذا التغيير ، ثم نتبع هذا الجانب النظري من الموضوع بتتبع تاريخي لهذا الاتجاه وواقعه .

ماذا نفهم من الإسلام ؟

إن الإسلام منهاج شامل للتحرر أو هو ثورة تحررية شاملة . إنه تحرير للبشرية من الطاغوت ، طاغوت الشهوة والخرافات والاستبداد والاستغلال ، وهو دعوة إلى التوحيد وما ينتج عنه من معاني المساواة والعدل والأخوة والحرية وحب الحق . إنه منهاج شامل للحياة يوجب على المؤمنين ، ليكونوا صادقين في إيمانهم، أن ينظموا حياتهم

• مجلة المستقبل التونسية ٢٣ - ٣ - ١٩٨١ .

الخاصة، ويعملوا على تنظيم الحياة عامة وفق إرادة الله التي كانت دعوة النبي العربي محمد ﷺ آخر وأشمل تعبير عنها، والمتمثلة في القرآن والسنة.

مبررات الدعوة للإسلام في مجتمعنا

تنطلق هذه المبررات أساسا من التناقض الصارخ الذي يحس به المؤمن إحساسا حاداً بين الصورة المشرقة للإسلام التي تغمر كيانه وبين الواقع الآسن الغارق في الوحل، ميوعة وانحلالا وتغريبا ثقافيا وحيفاً اجتماعياً واستبداداً سياسياً، وولاء، لا لله ولرسوله وللمؤمنين، وإنما للأهواء والمصالح والعصبيات والقوى الدولية الشيطانية. باختصار إن المسلم غريب، وإن غربته في هذا المجتمع تزداد على قدر نمو معارفه الإسلامية وانعتاقه من الاستلاب الثقافي. ولأن الإسلام يقتضي من معتنقيه أن يكونوا فعالين، إيجابيين، أصحاب رسالة، خلفاء لله في دعم قضية الحق والعدل والخير في العالم، ومطاردة الظلم والكفر، كان لزاماً على هؤلاء أن يجتمعوا على هذه الدعوة ويتفقوا على منهاج في تقويم أنفسهم وواقعهم: فكان الاتجاه الإسلامي.

منهاج الدعوة إلى الإسلام

وإذا كان الإسلام ربانياً، فمنهاج الدعوة إليه في مفهومه لا يترك للاجتهاد الشخصي، وإنما تولى الوحي والبيان النبوي تحديد ذلك

المنهاج. ويتلخص هذا المنهاج في مرحلتين:

أ - مرحلة بناء المجتمع المسلم أو إعادة بنائه وإصلاحه:

ومنهاج الدعوة في هذه المرحلة يتلخص في «البلاغ» المبين والصبر الجميل» كما أوضحته عديد الآيات والمرحلة المكية من السيرة النبوية، حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام يصدع بالحق في إبطال العقائد والمفاهيم الخاطئة وما ارتبط بها من مظالم اجتماعية ومفاسد خلقية واستبداد سياسي، ويدعو إلى عقائد الإسلام مبشرا بثمارها في سيادة العدل والمساواة والحرية والسعادة في الدارين، متحملاً بكل صبر ما يلقاه من اضطهاد من القوى المضادة لحركة التغيير، رافضاً كل محاولة من أصحابه لرد العنف بالعنف، داعية إياهم لمواصلة الهجوم الفكري على رموز الجاهلية مع تحمل الأذى. والآيات في ذلك كثيرة منها:

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾، ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾، ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾، ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾.

فكان حرص النبي وكل الأنبياء شديداً على أن لا تلتبس دعوتهم في هذه المرحلة بأي تهمة عنف أو إكراه، تكريساً لمبدأ حرية المعتقد والرأي، وحرَّموا لذلك على أتباعهم أن يقوموا بأي ممارسة عنيفة تستغلها القوى المضادة في التشهير بهم، فتقيم حواجز بينهم وبين الرأي العام وتصفهم بالارهابية والتآمر. وكان امتناعهم عن مجابهة

القوة بمثلها وهم قادرون على ذلك تفويتا للفرصة على الخصوم من ناحية وآية على صدقهم من ناحية أخرى . إذ لا يصبر على البلاء والعذاب إلا صاحب عقيدة .. فكانت مشاهد التعذيب المسلطة عليهم ، وهم صامدون في تحدي قوى البغي ، بمثابة المفجر للوعي الشعبي وإقناعه بأن وراء قوة السلاح والمال قوة أعظم هي قوة الإيمان ، فيتحول الرأي العام بدافع الإعجاب بالبطولة والثبات في وجه الطغيان وبما فطر عليه الإنسان من كره للظلم إلى متعاطف مع أولئك الدعاة ومع ما يؤمنون به ، ناقم على مضطهديهم ، مستهين بسلطان الجور أمام قوة الحق .. وبديهي أن صبر الدعاة على الأذى ليس دافعة استمالة الجماهير ، وإنما انتظار الأجر من الله على الالتزام بنهجه .

لقد كان الأنبياء حريصين أن تجرد دعوتهم من كل تهمة إلا تهمة الإيمان :

﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.
﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾.

وهي تهمة تحرج القوى المضادة للتغيير ، لأن الجماهير ترفض بفطرتها اضطهاد صاحب المبدأ لمجرد إيمانه بمبدأ يدعو إليه ماتجنب استخدام القوة. فإذا كانت هذه الجماهير إسلامية، ولو من غير وعي ، كان ذلك من باب أولى ، وعندها ترى القوى المضادة للإسلام ولو كانت ملحدة – تحرص على إظهار احترامها للإسلام ، فكيف تضطهد الدعاة إلى الله ، إنه لابد من رميهم عندئذ بأيّة تهمة عدا أنهم دعاة

للإسلام، ومن ثم فكم تكون فرحة تلك القوى عظيمة بتورط الدعاة أو بعضهم في ورطة العنف، وكم يكون ضرر الدعاة بدعوتهم فادحاً.

فهكذا كان شأن الأنبياء في منهاجهم لإنشاء المجتمع المسلم، وهكذا يكون إعادة البناء كما أكد ذلك الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». وفى هذا الإطار تجد كثيراً من التوجهات النبوية الداعية لتجنب استعمال العنف، مع الحرص على الإصداع بكلمة الحق إذا فسدت أحوال المجتمعات، تجد تفسيرها لا على أنها دعوة للاستكانة، وإنما هي دعوة إلى تصحيح المفاهيم وتقويم الموازين مع التسلح بسلاح «الصبر الجميل» حتى يستعيد الشعب وعيه.

ب - مرحلة قيام المجتمع المسلم:

فإذا أثمر عمل التوعية الإسلامية استجابت الجماهير في قطاعها العريض لهذه الدعوة، فرضيت بتحكيم الإسلام في حياتها، وقامت للإسلام دولته. وكان على تلك الدولة أن تنفذ حكم الله، وتمارس مهامها في نشر العدل ومنع الظلم بين رعيتها.

مسألة الجهاد

وكثيراً ما ترد شبهة الجهاد عند الحديث عن انتشار الإسلام والدعوة إليه، مما يوهم بأن انتشار الإسلام وانتصاره لم يتم إلا باستعمال القوة.

والحقيقة أن القوى المضادة للإسلام، لإنسانيته وعدله ورحمته، لم تستغل مبدأ في تشويه هذا الدين وصرف البشرية المضطهدة عنه كما فعلت ذلك مع مبدأ الجهاد. ولقد ساهم المسلمون في استقرار هذه الشبهة إما بعدم القيام بالبيان المبين من هذه المسألة، أو بقيامهم بأعمال غير واعية وغير مسئولة تتيح لخصومهم الفرصة في تصويرهم على أنهم إرهابيون، مع أنهم في الواقع ضحايا الإرهاب فكان يكفيهم أن يبينوا للناس معنى الجهاد وهدفه. فالجهاد هو بذل الجهد في نصرة الإسلام، فكل جهد لنصرة الإسلام في أنفسنا أو واقعنا يراد به وجه الله هو جهاد.

والجهاد يتنوع بحسب المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، ففي مرحلة بناء المجتمع الإسلامي أو إعادة بنائه – كما هو حالنا – لا يزيد الجهاد عن مجموعة الأعمال السلمية التي يقوم بها الدعاة من أجل تحقيق الإسلام فى أنفسهم، وتوعية الجماهير بحقائقه وتنفيرهم من المفاهيم الخاطئة وما يرتبط بها من ألوان الظلم والاستغلال، وتجميع صفوف المؤمنين وتربيتهم على التحرر من عبادة العباد لعبادة الله وحده. وليس من عمل الدعاة هنا إقامة الحدود، وحمل الناس على قوانين الإسلام طالما أن الناس لم يسلموا قيادهم للإسلام، فإذا رضيت الجماهير في قطاعها العريض تحكيم الإسلام فقامت للإسلام دولته، مارست تلك الدولة سيادتها ونفذت أحكام الله فنشرت العدل ومنعت الظلم والاستغلال والفساد ولو بالقوة.

وعلى اعتبار أن الدولة الإسلامية تقوم على رسالة أممية كان عليها أن تعمل على نشر الإسلام عن طريق « البلاغ المبين » فإذا قامت في طريق الدعاة قوى طاغوتية تستبد بشعوبها وتحول بينها وبين ممارسة حرياتها ومنها حرية المعتقد كان على دولة الإسلام أن تزيح تلك الكيانات المستبدة ولو باستعمال القوة لا لغرض فرض الإسلام على تلك الشعوب وإنما تمكينها من فرصة التعرف على الإسلام فتقبله عن بيّنة أو ترفضه عن بيّنة بدون أي إكراه. فهنا يضاف إلى معنى الجهاد معنى آخر هو القتال من أجل كسر القوى المهيمنة في العالم وتمكين الشعوب من حق تقرير مصيرها بما فيه الموقف العقائدي.

لقد كانت حركة الجهاد بكل معانيه ثورة ضد الاستبداد والاستغلال ودفاعا عن مبدأ عظيم لم يعترف به العالم إلا في هذا القرن هو مبدأ حرية المعتقد والدعوة إليه، ولقد عاشت في ظل الدولة الإسلامية شعوب شتّى ومذاهب شتى لم تحمل على التنكر لعقائدها أو لغاتها ..

الاتجاه الإسلامي والعنف

إن العمل الإسلامي منذ انطلاقته في بداية السبعينات إلى يوم الناس هذا وهو يستوحي المنهج الإسلامي في الدعوة إلى الإسلام، فاقتصر عمله على توعية الجماهير بحقائق الإسلام مفندا حجج الأيديولوجيات المناقضة للإسلام ناقداً صور التدين الموروثة من عصر

الانخطاط متوسلا إلى ذلك بمختلف أدوات التثقيف والنشر المتاحة له.

ولقد أثمرت بفضل الله الجهود المتواضعة التي بذلتها الحركة، فتنامى الإقبال على المساجد التي كانت قد اقفرت إلا من عجوز مدنف. واشتد الاقبال على المنشورات الإسلامية، وسرت روح جديدة في مجتمعنا، فتسارعت حركة بناء المساجد في المؤسسات التربوية والإدارات والأحياء والمدن، وتذكر التونسي بعد سنوات طويلة من الجدب أن له رباً واحداً هو الله ينبغي أن يعبده وحده، وأن له ديناً يقتضي منه التزامات وتضحيات وليس مجرد النطق بكلمات، وأن دينه يمثل أقوم منهج لحياة البشر فما باله يهيم على وجهه في درب الحضارات والأيديولوجيات يبحث عن ذاته، تذكر أن حاله:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء من فوق ظهورها محمول

فصحا وهاله ما عليه من تفلت وانبتات وميوعة وانحلال ومظالم شنيعة يأباها الدين الحنيف، فانطلق إلى مناهل الإسلام يرتوي من معينها، وإلى شخصيته يعيد صياغتها، وإلى مجتمعه يحاول تصحيح مساره المنحرف مبشرا بتعاليم «الدين الجديد» كما لو كان جديدا حقا.

وكان من الطبيعي أن تصطدم هذه الحركة التغييرية بمقاومة من المجتمع شأن كل مجتمع يدافع عن نفسه ضد كل تغيير، ومقاومة أشد من طرف النظام شأن كل نظام يبحث عن الاستقرار والبقاء، ومن طرف القوى الطامحة للتغيير ولكن في اتجاهات أخرى. ولقد استطاعت القوى الفاشية والرأسمالية من داخل النظام أن توظف

اشعاعات الثورة الايرانية وما حملته من رياح التغيير في العالم العربي والإسلامي ، فكانت حملة الحزب وهو يعد لمؤتمره سنة ٧٩ ضد الحركة الإسلامية ، تلك الحملة التي توجت أواخر ٧٩ بإيقاف مجلتي الاتجاه « المعرفة » و « المجتمع » واعتقال عدد من وجوه العاملين للإسلام وإيقاف نشاطهم المسجدي ، ثم جاءت في بداية ٨٠ هزة قفصة فغيرت الموازين والممارسات والرجال والشعارات ، ولكن الموقف المتوجس من تنامي التيار الإسلامي لم يتغير واستمر المسئولون الجدد على تعطيل الإعلام الإسلامي بل أضافوا ضحية أخرى : جريدة « الحبيب » وسلسلة اعتقالات متتالية .

وكان من الطبيعي أن يتفاعل الاتجاه الإسلامي مع مرحلة التحولات وتفاقم الأزمات التي يمر بها مجتمعنا وشعور الاضطهاد يتجذر عنده يوما بعد يوم .

فكان للاتجاه الإسلامي من موقعه المتنامي في القاعدة الشعبية المتضررة من المنهاج المتبع في تسيير البلاد مواقف معارضة .

صمود ضد الاستدراج إلى العنف

إن الإسلاميين باعتبارهم جزء من القاعدة الشعبية المسحوقة يعانون مجموعة من التوترات والضغوط ، يشتركون مع غيرهم في مجموعة منها ، ويختصون في مجموعة أخرى تنطلق من إحساسهم الحاد بالتناقض بين الصورة المشرقة للإسلام وبين الواقع المتردي بما فيه واقع

التدين التقليدي الذي يمثل هو الآخر مصدر ضغط إضافي عليهم ، فضلا عما يلاقيه الشاب المسلم من ضغط عائلي بسبب انتمائه لحركة معارضة متجذرة ، فإذا خرج إلى الشارع أو إلى المؤسسة وجد قمعاً آخر في شكل سخرية به وبمظهره خاصة إذا كانت فتاة . ويصل الأمر حد تسليط مختلف العقوبات كالزجر والطرد لا لشيء إلا لأن هذا العنصر يمثل سلوكه نموذجا يخالف النموذج المألوف ، فإذا كان هذا القمع على مختلف المستويات يجد دعما ضمنيا أو صريحا من قبل الأجهزة الرسمية وجد الشعور بالاضطهاد مجاله الواسع للتغلغل في شخصية المسلم الملتزم .

فإذا أضفنا إلى هذا القمع الاجتماعي والسياسي الرسمي ما تمارسه بعض فصائل المعارضة بدافع الغيرة والحسد والخوف من تنامي الاتجاه الإسلامي ، ما تمارسه من دس وإيغار للصدور بل من عنف ضد كل منافسيها السياسيين الذين استطاعت بأساليبها الارهابية أن تصفيهم تقريباً وتخرجهم من حلبة الصراع ، حتى إذا جربت ذلك مع الاتجاه الإسلامي تصدى لها دفاعاً عن الحرية في الجامعة وحق كل اتجاه في خدمة قضاياه والدفاع عنها والتعريف بها .

إذا وضعنا كل ذلك في الحساب أدركنا حجم التوترات التي تتفاعل في نفس كل تونسي وكل معارض بشكل خاص وفي صفوف الاتجاه الإسلامي بشكل أخص ، والتي تفسر استعداد هذا الاتجاه بل كل اتجاه معارض بل القاعدة الشعبية عامة للعنف ، لا ضد النظام فحسب بل حتى ضد بعضها بعضا .

ولكن السؤال الذي ينبغي أن يطرح هو : كيف استطاع اتجاه سياسي معبأ عقائدياً تتسلط عليه كل هذه الضغوط أن يمسك زمام نفسه طوال هذه المدة فلم يتورط في أعمال العنف المتجددة والمتصاعدة في مجتمعنا ، فما دفعت الجماهير من المساجد المكتظة يوما تحرق أو تكسر أو تضرب ؟ الذي يفسر هذا الصمود في وجه العنف هو المنهاج الحركي الذي يؤمن به هذا الاتجاه ، والذي يتخلص في «البلاغ المبين والصبر الجميل» وهو يتناقض مع العنف أساساً تناقضا لا ظرفيا أو مصلحيا فحسب بل مبدئيا – كما سلف – فضلا عن مردوده السيئ على الحركة وتوفيره الفرصة لأعدائها أن يلوثوا المناخ السياسي والاجتماعي المهيأ لطرح مقولاتها ومبادئها في محاولة لإجهاض تطلعات الجماهير نحو الإسلام رائداً منقذاً .. فالعنف فضلا عن كونه يتناقض مع مبادئنا ومناهجنا لا يخدم غير مصلحة أعدائنا ، أعداء الإنسانية . نحن نثق في الإنسان وفي قدرة تفاعل هذا الدين مع طبيعته في جو من الحريات والصراع الديمقراطي . فماذا تجني حركة مثلنا من العنف غير الخسارة ؟

إن رفض الاتجاه الإسلامي للعنف هو الذي يفسر المقاومة الشديدة التي أبدتها قواعده في الثانويات للتصدي لأعمال التخريب التي يغذيها شعور الفتيان بالحيرة والقلق وغموض المستقبل وديكتاتورية الإدارة ، كما تغذيها أطراف سياسية داخل النظام وخارجه تتبنى العنف منهاجا . ورغم ما اجتهد بعض الحاقدين ممن لا خلاق لهم في إلباس الاتجاه الإسلامي لبوس العنف في الأحداث

المدرسية الأخيرة ، فاني اؤكد وسيكشف التاريخ ذلك ، أنه لولا تصدي الاتجاه الإسلامي في المدارس لأعمال التخريب لما بقي شيء قابل للكسر أو للحرق لم يكس ولم يحرق ، ولو صدق رجال الادارة في المدارس لأدّوا هذه الشهادة ولكشفوا المسئولين الحقيقيين عن ظاهرة الفساد والتخريب الذي يؤمن المسلم أنه من أعظم الاثم .

والاتجاه الإسلامي لم يتردد في إدانة أعمال العنف سواء تلك التي حصلت في المدارس أو في الكليات أو في المؤسسات ، وإذ ندين أعمال العنف والتخريب من موقع مبدئي وسيلة في معركة تحديد مصير تونس ، فنحن نحمل المسئولية الكبرى في ذلك لاختيارات النظام ثم لأولئك الذين ينظرون للعنف من داخل أجهزة الحكم ولسان حالهم « التونسي ما يمشي إلا بالقوة » ولأجهزة القمع التي تسم بخطى حثيثة في طريق تقريب صورة السافاك لأذهان التونسيين ويقابلهم في صفوف المعارضة أولئك الذين يرفعون جهاراً شعار العنف الثوري ضد ما اسموه بالرجعية ، منادين « لا حرية للرجعية » أولئك الذين يشكل العنف القاعدة الأساسية في منهاجهم للسيطرة على البلاد والعباد .

ونحن إذ نبين هذه الحقائق لا نفعل ذلك من موقع الكيد لأحد أو الخوف من أحد ، فنحن قوم لا نفتأ نروض أنفسنا على العمل من منطلق الإيمان أنه « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » ، وإنما ذلك جزء من واجب البلاغ الذي نقوم به ليتحمل الجميع مسئوليتهم عن وعي . ونحن نذكر في الأخير بما أكده المفكر الإسلامي جودة سعيد

باننا « نريد أن نساهم في بناء مجتمع جديد لا تشيع فيه رائحة الدم والتلمظ للثأر ومضغ روح الانتقام والعدوان » .

رؤيـة إسـلامية للعمـل النقابـي في تونـس

بمناسبة المخاض الهائل الذي يعتمل في رحم أمتنا في هذه اللحظات التاريخية التي تشهد فيها بلادنا وأمتنا بدايات جادّة لتحوّلات نوعيّة ضخمة ستضع حدّاً لمرحلة الضياع التاريخي التي امتدّت قرونا طويلة ظلّ فيها المسلم مغيّبا في تأمّلات إشراقية خادعة وشطحات صوفية مخدّرة ومجرّدات كلامية وتفريعات فقهية تعاونت كلّها مع أنظمة الاستبداد وفقهاء السلطة على عزله عن واقعه وسلب فاعليّته وتهميش وجوده وإفراغ رسالته ، كما ستضع حدّاً لما استتبع الوضعية السابقة من تسلّط غربي على وجودنا الروحي والمادّي زاد ضياعنا ضياعا واختلالنا اختلالا حتى أنّ أمثل رجالنا طريقة وقد نهضوا ينفضون على العيون غبار الانحطاط ويتطلّعون إلى التحرّر من أوربا لم يكادوا يرون في معظمهم من طريق إلى ذلك الإصلاح سوى تعديل حياتنا وفكرنا ونظام وجودنا وفق المقياس الغربي وها قد مرّ على تاريخ الإصلاح في بلادنا على يد « المشير أحمد باي » وخلفائه من السياسيين والمفكرين « المستنيرين » أمثال خير الدّين وابن أبي الضياف وبيرم والسنوسي وإلى حدّ ما حركة الشباب التونسي وحزب الدستور

القديم ، وعلى الأخصّ وريثه والامتداد المتفاقم المشوّه لكلّ هذه المسيرة « الدستور الجديد » ، وما أفرزه ونشأ في أحضانه من حركات وأجيال علمانيّة ضائعة منحرفه منبّته .

ها قد مرّ على كل ذلك ما يزيد عن قرن ونصف تمخضّ عنها انهيار يوشك أن يكون كاملا للإنسان والمجتمع كما هو معلوم فان خراب العمران مؤدّن بتجدّده – وأمّتنا وبلادنا – بشكل أخصّ – بسبب أن حركة الدّمار فيها كانت أشدّ وأعمق تعيش هذه اللحظات التاريخية الممتازة من التحوّل النوعي الذي تشتدّ وتتسارع فيه الحركة المزدوجة : خراب العمران وتجدّده . وهي حركة لم تعد تخفى عن ذي عينين بسبب تسارعها وشمولها ، لكن قطاعات مجتمعنا التي تشهد جميعها هذا المخاض الرائع الذي سينتهي بعون الله ثمّ بجهاد أبناء الإسلام إلى اكتشاف الذات وإقامة البناء الجديد . وإن من أهمّ الأرحام التي يعتمل فيها هذا المخاض والتي كان لها الدّور الفعّال في تشكيل صورة تونس الحديثة ، والتي سيكون لها دور أكبر في تشكل صورتها المستقبلية ، هي المنظمة الشغيلة بسبب رصيدها النضالي التاريخي واتساعها العددي الراجعين إلى ما في البقية التاريخيّة لمجتمعنا من انسجام عقائدي واجتماعي ، فما أن حلّ الاستعمار وهزّ تلك البنية بعنف محدثا فيها اختلالات كبيرة حتى هبّ المجتمع يدافع عن نفسه خاصّة وأنّ رأسماله ومورده الوحيد هو جهده فإذا سلبه كلّا أو بعضا هبّ يدافع عن نفسه ، والأمران قد حصلا بحلول الاستعمار ولم يزدهما العهد الجديد إلّا تفاقماً ، فكان اتحاد الشغل ونضال الشغّالين

احتجاجاً على عملية السلب تلك وكفاحاً من أجل استعادة الانسجام المفقود في البناء الاجتماعي الذي أرسى دعامته الإسلام بفعل قيمه التي اقترن فيها الإيمان مع الأخوة والعدل والمساواة .

ولذلك كانت المنظمة الشغيلة بحقّ من أهمّ ما أفصح عنه ضمير قطرنا من تعبير عن همومه وطموحاته وشخصيته ممّا يعدّ بحقّ مفخرة من مفاخره قلّ أن لم يعدم لها نظير في الأقطار العربية والافريقية المشابهة. ولذلك فليس عجبا أن مثلت هذه المنظمة عامل الحسم الرئيسي في أهمّ الصراعات التي شهدتها ساحة النضال الوطني خلال هذا القرن ، مثل الصراع بين الحركة الوطنية في عمومها والاستعمار الفرنسي، فخذلت هذا الأخير ووجهت إليه ضربة قاصمة منذ أن انفصل نضال العمال التونسيين عن النقابة الاشتراكية الفرنسية – فرع تونس – وقاومت بشدّة محاولة الاحتواء التي قام بها النقابيون الشيوعيون الفرنسيون – فرع تونس – رافضة بشدّة مبدأ الصراع الطبقي لصالح قيمة الانسجام والتعاون[1]، كما حسمت الصراع بين الحزب الدستوري والمنشقين عنه من البورقيبيين لصالح هؤلاء الاخرين سواء بسبب الانتماء المشترك للبرجوازية الصغرى بينما ينتمي الدساترة القدامى إلى البرجوازية الارستقراطية القديمة عموماً، أو بسبب الاشتراك في ثقافة التغريب السائدة في الوسط القيادي لدى الطرفين مقابل الانتماء الغالب على قيادات الدستور القديم إلى التدين الإصلاحي الزيتوني ، ثمّ في الصراع المرير الذي دار بين البورقيبيين واليوسفين في الخمسينيات حسمته المنظمة الشغيلة لصالح الفريق

الأوّل ربّما بسبب التوجه المشترك إلى الغرب مقابل التوجه المشرقي للآخرين – وما أحسب إلا أن هذه السنة ستطّرد فيما يتعلّق بحسم الصراع الأخذ في التبلور والحدة بين حاملي الهوية الإسلامية وبين مختلف الشرائح العلمانية والتبعية والتغريب والاستغلال. ومن هنا تأتي عملية المخاض الهائلة التي تشهدها ساحة الشغالين والتحالفات، التي انحلت أو هي في طريقها إلى الانحلال أو تلك التي حلّت أو ستحلّ محلّها والتي تؤخذ فيها بعين الاعتبار عوامل الحذر والتدرّج وتقدير حجم ما يجمّع وما يفرّق على الصعيد الاجتماعي والثقافي: مع الاستغلال أو ضدّه ومع الديمقراطية للجميع أم ضدّها، ومع الهوية الثقافية العربية الإسلامية أم ضدّها. فهل من عجب بعد ذلك أن يشتدّ الصراع للسيطرة على المنظمة بين كل الأطراف التي تطمح أن يكون لها نصيب يكبر أو يصغر في تحديد مصير تونس واختياراتها الكبرى اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، إنه هناك تقع عملية الفرز النهائية والحسم بين كل القوى المتصارعة. وبالإضافة إلى ما تقدّم من أهميّة المعركة في هذا المجال من حيث كونها عاملا رئيسيا محدّدا لمصائر بقية المعارك وعلى أساس ذلك فإنّ تلك الأهمية بالنسبة للحركة الإسلامية تتدعم لتكتسب خصوصية أهمّ تتمثل بالإضافة إلى ما تقدّم في:

١ – على الصعيد العقائدي: رغم أن الإسلام ثورة تحريرية شاملة موضوعها الإنسان – كلّ إنسان – لتحريره من الاستبداد فعلا وانفعالا ومن الاستغلال قابلية وممارسة، وطريق ذلك عبادة الله باخلاص والجهاد الأبدي في سبيله فيكون من ذلك

وعلى قدر ذلك العدل والحريّة والكرامة الإنسانية على كل المستويات الاجتماعية، على الرغم من ذلك فإنّ الأنبياء وخلفاءهم وهم روّاد التحرّر الإنساني كان القطاع الأوسع ممن استجاب لدعوتهم هم الشباب والمستضعفون مصداقا للحديث « حالفني أحداث الناس وفقراؤهم » ، وهو معنى أكّده القرآن مراراً ﴿ وما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون ﴾ . بل إن النضال الاجتماعي للمسلم لا ينتهي إلى غايته إلا بتحقيق إرادة الله في انتزاع قيادة المجتمع من الملك الطاغي المترف ليتسلمها المستضعفون المؤمنون : ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين ﴾ ممّا يجعل معركة المسلم في هذا القطاع العمّالي جزء من جهاده العقائدي لتحقيق إرادة الله في تطهير نفسه ومجتمعه من الترف قرين الظلم والطغيان .

٢ – على المستوى الثقافي : إنّ ازمة الاتحاد الحقيقية وهي جزء لا يتجزأ من أزمة البلاد إنما تتمثل أساسا في التسلط المتواصل من طرف نخبة ثقافية وسياسية عن طريق الشعارات البرّاقة والخداع والتزييف، وحتى العنف وغياب الديمقراطية في الاتحاد وداخل البلاد هو حتمية من حتميات ثقافة التغريب السائدة ، فطالما استمرّت النخبة الثقافية الأعجميّة على اختلاف أيديولوجياتها – تمسك بيدها بزمام القيادة ، منبتة

عن ثقافة الجماهير ومصالحهم، فتستمرّ باستمرار هذه القطيعة الديكتاتورية في شكل من أشكالها مهما ارتفعت شعارات الديمقراطية. ولن ترتفع تلك القطيعة إلا بقدر التحرر من ثقافة التغريب، وبقدر الالتحام في الاتحاد والبلاد بين الإسلام – وهو العمق الثقافي للجماهير – وبين نضالها الاجتماعي والسياسي، حتى تلتحم بالتالي قيم الهوية والعدل والحرية وهي القيم الأساسية التي أطرت نضالات الجماهير – دون أن تلتقي أبدا – منذ الثورة الشعبية التي قادها زعيم ماجر والفراشيش علي بن غذاهم سنة ١٨٦٤ كأول ردّ فعل شعبي ضدّ سياسات التغريب للمشير أحمد باي وخلفائه التي سميت « اصلاحات » وانما كانت تمهيدات للاحتلال – وفي سياق مقاومة سياسات الاحتلال الاقتصادية والسياسية والثقافية – وباحتشام بالنسبة لهذه الأخيرة – ظهر كفاح الشغالين، وفي نفس السياق ظهرت الأحزاب السياسية مثل الدستور في شكله القديم والحديث، والجمعيات الثقافية مثل « الشبان المسلمين » ولكن ظلّت تلك النضالات فاقدة للإطار الأيديولوجي الموجه والموحّد والدافع، وما ذلك إلّا بسبب ركام الانحطاط الذي أقعد الزيتونيين ممثلي الإسلام – عن النهوض بواجب القيادة الاجتماعية والسياسية – رغم المحاولة المتأخرة والجريئة لجمعية « صوت الطّالب الزيتوني » التي حاولت تحرير الجامع من تسلّط « ارستقراطية العاصمة عليه

وعلى التمثيل للدّين جملة أولئك الذين تنازلوا عن واجب حمل هموم الجماهير لفائدة مصالحهم الفئوية تاركين الجماهير المسلمة الثائرة لقمة سائغة في أفواه القيادات المتغرّبة ، فكانت تلك الجريمة أكبر إعاقة صاحبت ولا تزال نضالات الجماهير الاجتماعية والسياسيّة والثقافية ولن يتخلّص نضال الشغالين من هذه الإعاقة التي صاحبته منذ انطلاقاته في العشرينات وتفاقمت بعد ذلك بتفاقم سياسات التغريب التي جعلت وزن الإسلام يتضاءل في كلّ المراكز القياديّة لصالح الدفعات العلمانيّة المتزايدة التي قذفت بها مؤسّسات التعليم الفرنسي في الثلاثينات والاربعينات محدثة انقلابات هائلة في توجّه الحركة الوطنيّة – عامة – وانتهى بسيادة التغريب في كلّ ميادين النضال ، لن يتخلّص نضال الشغالين من هذه الاعاقة التي صاحبته منذ انطلاقته باقتصاره على حمل قيمة الانسجام أو العدل أو المساواة وشيئاً ما قيمة الحرية متخلياً عن قيمة الهوية العميقة لمجتمعنا مما جعله يسقط بسهولة في التحالف مع أعداء هذه الهويّة من الدساترة بسبب ما أظهروه من حيويّة في الدفاع عن قيمة التحرّر وغمرة مصطنعة عن هويّة البلاد ، ما لم يلتحم الإسلام بعرق الكادحين وهمومهم كما التحم بحماس الشباب وثورتهم ، ويتخلّص الإسلام من الإعاقة الزيتونية كما يتخلص الاتحاد من الإعاقة التغريبية ، وتلتحم في الإسلام – وهو الإطار الأيديولوجي الوحيد المؤهّل لذلك – القيم الرئيسية للنضالات التونسية منذ قرن ونيف : النضال من أجل الهوية العربية

الإسلامية والعدل والتحرّر، وأن مستقبل البلاد واتجاه نضالاتها سيحدده مقدار وعمق ذلك الالتحام.

الاتجاه الإسلامي: ومن هنا تأتي الأهمية البالغة التي يكتسبها ظهور الحركة الإسلامية في تونس، وهي أهمية لا تقتصر على ما سجّله بجرأة علمية منقطعة النظير في الوسط العلمي التونسي عالم الاجتماع السيّد « عبدالباقي الهرماسي » من أن « الحركة الإسلامية هي أكثر الحركات حساسيّة وشعوراً بأزمة القيم الجماعيّة منذ أوائل السبعينات ولكنه استدرك « ومن المهمّ ألّا ننظر إلى الحركة الإسلامية كأنها مجرّد حركة سياسيّة، إنها قبل كلّ شيء حركة فكرية ثقافية اجتماعية، وهي تقوم بدورها في تأطير الشباب بما توفره له من ملجأ لم يجده في مكان آخر (الرأي 84/2/17).

ولربّما كان الاجتماعي الأستاذ أحمد المناعي أكثر دقّة في التعبير عن تلك الأهميّة عندما أكّد « اعترفنا بالاتجاه الإسلامي أو لم نعترف فإنّه مما لا مراء فيه أنه قد قدّم خدمات كبرى للمجتمع التونسي، وليس إدخال الإسلام ضمن مشكلات حياتنا أقلّ تلك الخدمات، كذلك التعلق بالهويّة العربية الإسلامية للبلاد التي اضطرّ للاعتراف بها كلّ الأطراف السياسية حتى أولئك الذين كانوا يعلنون بالأمس عن عزمهم في تدمير الإسلام » (المغرب 83/12/31).

إنّ أهمية الاتجاه الإسلامي في البلاد انما تتمثل أساسا في انتهائه بعد رحلة نضاليّة لعشر سنوات مباركة إلى تقديم الإسلام عمليا ونظريا كإطار لنضالات جماهيرنا الثقافية والاجتماعية والسياسية يلتحم فيه ما

تمزق شمله منذ قرون من قيم الهوية والعدل والحرية ،

ومن ثمّ فإنّه من وجهة النظر القيمية التكاملية يمكن أن نؤكد أنّ تونس الحديثة لم تعبر عن ذاتها – بعد المؤسسة الزيتونية والمنظمة الشغيلة والدستور في بعض مراحله وجمعية الشبان المسلمين – تعبيراً أفصح وأعمق وأشمل من الحركة الإسلامية ، فالعدل أو الانسجام والحرية والهوية قد مثّل الاستعمار تهديدا مباشرا لها ، فانتضت تونس تلك الأسلحة الثلاثة للدفاع عن ذاتها ولم تحقق الجهود الكبيرة التي بذلت من أجل تحقيها ما كانت تأمله الجماهير ، فكانت الحصيلة هزيلة على أرض الواقع في تحقيق تلك القيم ، بل كانت في أحيان كثيرة بل غالباً تراجعية مما أصاب الجماهير بخيبة الأمل وقلّص فاعليتها النضالية ، فانزلقت قطاعات واسعة منها إلى نشاطات هامشية لا تهدف إلى غير المتعة العابرة والجمع والتكديس ، وما ذلك إلا بسبب غياب الرؤية العقائدية الشاملة التي تلتقي فيها تلك القيم في انسجام طبيعي ، وبالتبعية : غياب الإطار التنظيمي المؤطر والمعبّر للجماهير على أساس تلك الرؤيا من أجل تحقيقها واقعا اجتماعيا ،

ولأنّ الحركة الإسلامية وحتى النصف الثاني من سنة ٧٨ كاد يقتصر نشاطها على إبراز وتأكيد الهوية الإسلامية الضائعة فقد كان التجاوب الجماهيري معها محدوداً نسبياً ، لأنّه رغم استشعار الجماهير ما ينطوي عليه هؤلاء الدعاة الشبان الجدد من إخلاص وصدق وما تلبّية دعوتهم من حاجة حقيقية في النفوس ، لم تجد في العروض المقدمة في الساحة يمينية ويسارية ما يستجيب لها ، إلا أنها رغم الالتفاف

الجزئي حول هؤلاء الدعاة كانت تنتظر عرضاً أكثر غنى، عرضاً تجد فيه حقيقتها الضائعة وهمومها ومطالبها الراهنة متعانقة في انسجام.

وكان موقف السلطة ذاته من هذه الدعوة الجديدة – رغم ما ساده من ارتياب وقلق لم يبلغ حالة الشعور بالخطر إلا عندما برز التحول التكاملي في صلب هذه الحركة بفضل المراجعة الداخلية وضغوط الواقع والرغبة في الانسجام مع المتغيرات – جليّا ففتحت عينها على هموم أخرى للجماهير – إلى جانب مسألة الهويّة.

فما أن ارتفع صوت خطباء الحركة منددا بالفوارق الطبقية والجهويّة والتبعيّة الرأسمالية، والتناقض بين الخطاب الديمقراطي والممارسة الارهابية، متخذاً حدّة في النبرة وعمقاً في المضمون بالرجوع إلى مصادر التشريع والنماذج التطبيقية التاريخية، حتى التقت قطاعات هامّة من الجماهير المهمّشة ثقافياً واجتماعياً حول الحركة. فتحولت مواعظ المساجد وحلقات التوعية الثقافية في المدارس والكليّات إلى اجتماعات جماهيريّة حاشدة طغت عليها الصبغة التعبوية المباشرة. فلم تلبث السلطة أن أصابها الرعب من هذا التحول، فبدأت حملات التشكيك في صدق نوايا الإسلاميين، ثمّ التضييق على منابرهم بإيقافها، ثمّ التحقيقات خلال الإيقافات الجزئية المحدودة، ثم التفرغ شبه الكامل للقمع والتصفية، حتى إذا بدا ذلك مستحيلاً مع التدفق الجماهيري صوب الحركة والدعم المتواصل لها وقد بدأت تكتشف فيها ذاتها، يبدو أن تحريف المسار بحمل الحركة على التخلي عن رؤيتها الجذرية التكاملية هو هدف المرحلة في خطّة النظام لمقاومة الحركة،

لأنّ تلك الرؤية هي المقوّم الأساسي لهذه الحركة وقوتها واشعاعها الذي امتدّ إلى مختلف قطاعات المجتمع من أهمّها وأحدثها بعد القطاع الطلّابي والتلمذي ، القطاع العمّالي .

٣ – على المستوى الداخلي للحركة : لا تقتصر أهمية القطاع العمالي بالنسبة للحركة الإسلامية على أنه المجال الذي تجسّد فيه الحركة تصورها العقائدي في تحقيق إرادة الله في انتصار جبهة المستضعفين وتسلمهم القيادة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، ولا على أنه المجال الرئيسي لتحقيق الوحدة القيمية لثقافتنا (الهوية ، العدل ، الحرية) تلك الوحدة التي تمزّقت منذ قرون وجاء الغرب والتغريب لينقلا الانحراف من مستوى الممارسة إلى مستوى التنظير المتمثل في العلمانيّة أي الفصل بين الدّين والسياسة ، والفصل بين الدّين والمجتمع ، حتى غدت العلمانية المبدأ الرئيسي في علاقات مجتمعنا وقيمه ومثقفيه .

لا تقتصر أهمية هذا القطاع على هذين المستويين رغم أهميتهما ، وإنما تتجاوز ذلك ليمثل عاملاً رئيسياً في إنجاز تحولات أساسية داخل الحركة الإسلامية نفسها .

إنّ الحرص على الانخراط المكثف للمناضلين الإسلاميين في صفوف المنظمة العماليّة من شأنه أن يدفع إلى الأمام الحركة الإسلامية بشدّة وفعاليّة وسرعة وعمق أكبر إلى التحرر من الجدليات المثالية للمثقفين وخيالاتهم الفوقية وصراعاتهم

الهامشية ،ويجعل الحركة تلتصق أكثر فأكثر بواقع الجماهير وهمومهم. فيتحول الإسلام من دين للفلاسفة إلى دواء وغذاء وسلاح للمستضعفين . فلن تكون هذه الحركة وريثة شرعية لحضارة الإسلام التليدة ، وممثلة لطموحات الجماهير بحقّ ، وجزء لا يتجزأ من أديم هذه الأرض وهوائها ومائها وسمائها ، ما لم تنته هذه الوحشة بل القطيعة بين الكادحين وبين المذهبيات التي أنضجتها عقول المثقفين . وأرادت بل دأبت على إسقاطها على الكادحين بمعزل عن فطرتهم وإرثهم الثقافي وهمومهم ، فيمتزج الإسلام بعرق الكادحين وهمومهم ونضالهم وطموحاتهم ، فيعبئهم ويقود مسيرتهم لتحقيق قيمة التقوى والعدل أو الانسجام والتحرر السياسي والثقافي والاجتماعي عامّة على رأس حركة الإسلام التحرّرية الشاملة ، وإنما مقياس مدى النجاح في تحقيق هذا الهدف لا يتمثّل فحسب في مدى حجم التأثير الإسلامي في سياسة النقابة من حيث مقدار حملها وتحقيقها لطموحات الجماهير في العدل الاجتماعي والحريات الديمقراطية داخل المنظمّة وفي البلاد عامّة واعتبار الهوية الثقافية العربية الإسلامية هدفا رئيسيا للنضالات العمالية لا معنى ولا تحقيق فعلي لبقية الأهداف في غيابه – ولا في مدى حجم الانخراط العمالي في صفوف الاتجاه ومدى مشاركتهم في نضالاته حتى يغدو أوسع الأبواب إلى حرم الاتجاه هو الباب العمالي ليس ذلك فحسب على أهمية كل ذلك وانما مقياس

النجاح انما يتمثل أساسا في مدى تمثيلية العنصر العمالي في كل المراكز القيادية الجهوية والمركزية بلا استثناء فان نسبة تلك التمثيلية لتحديد نوعية حركتنا ومستقبلها وأساسا مدى قربها أو بعدها من رسالة الأنبياء ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط ﴾ الحديد ،، وهي مؤشر أيضا على مقدار الخطوات التي قطعناها في الطريق إلى إقامة مجتمع وحكم إسلامي ومؤشر دالّ على مصير المعركة التي نخوضها مع التبعية والتغريب ذلك أنه كان للاتحاد – كما مرّ سابقاً ، وما أحسب إلا أن هذه السنة ستطّرد – دور الحسم في كل الصراعات الرئيسية التي شهدتها الساحة الوطنيّة خلال هذا القرن – فكان تكوّن اتحاد عموم العملة التونسيين في ١٩٢٤ بالانفصال عن النقابات الفرنسية بداية النهاية للاستعمار المباشر – وكذلك الأمر بالنسبة للصراعات التي دارت بين مختلف شرائح الحركة الوطنية مما يقطع بأنّ حكما مدنيّا في تونس لا يمكن أن يقوم – وإذا حصل فقام بطريقة ما – لا يمكن أن يستمرّ في قطيعة مع المنظمة النقابية – ولذلك كان انفصال عاشور في ٧٨ عن الحزب الحاكم إيذانا بنهاية الحكم المدني للحزب الدستوري ، وكان ردّ فعل النظام الحاكم في حجم الخطر المحدّق به وأثبتت التجربة أن الطلاق لم يكن نزوة غاضب بل قطيعة موضوعية لا مجال لرجعة معها ، وكان طبيعياً تطوّر النظام المتسارع إلى نحو النموذج البوليسي العسكري وهو تطوّر سينتهي لا محالة إلى

العجز الكامل للنظام عن حكم البلاد مدنيا وعن رعاية مصالح الرأسمال اللوبي فيحرك هذا الأخير بعض بيادقه في الجيش منهيا حكما مدنيا عجز عن رعايه مصالحه ، وهو سيناريو عدا نكرره مملا في العالم الثالث ، وهو خطر حقيقي صعب يتربص بالبلاد والنجاة من هذا المصير اليائس إنما هو بسلوك الطريق الوحيد للإفلات من تلك الدوامة ، وهو البحث عن أسس موضوعية لإقامة تحالف بين ركني الحكم المدني في تونس : تنظيم سياسي قوي ، منظمة نقابية قوية متماسكة وإذا كان هذا التحالف بين الدستورة والمنظمة النقابية لظروف موضوعية محليّة ودوليـة هو الذي قاد مجتمعنا منذ الأربعينات وقام على أساسه الحكم المدني على ما هو عليه قد انتهى سنة ٧٨ إلى طلاق لا رجعة فيه ، فإن مصير الحكم المدني في تونس مرتبط أساساً بمدى قدرة الإسلاميين - وهم الطرف السياسي الذي يملك موضوعياً إمكانيات وإن استخدم بعضها فلا يزال أكثرها كامناً - لتسخيرها في تعبئة كلّ الطاقات الجماهيريّة والسياسية والاجتماعية والثقافية لبلورة وإرساء البديل الاجتماعي المدني المحقق لطموحات جماهيرية موؤودة منذ أكثر من قرن في ولادة مجتمع يقوم على أساس الهوية العربية الإسلامية والعدل والحرية ، في إطار إسلام ثوري مصفى يكون نواة أو حلقة ذهبية ضمن سلسلة مغربية عربية إسلامية ، وأنه ليس من سبيل

إلى مجتمع مدني حقيقي في تونس دون تحالف مصيري بين الإسلام وحركة المستضعفين من العمال والشباب والنساء.

إن المنظمة الشغيلة اليوم والبلاد عامّة حبلى بالإسلام كما كانت حبلى في منتصف القرن الماضي بالغرب وما برز حتى الآن من فاعلية إسلامية في الكليات أو الثانويات والنقابات ليس إلا أوّل الغيث ،، وللحمل آلامه فضلا عن الولادة وهي آتية لا ريب فيها ،، ولن يزيدها الاضطهاد إلا تجذراً وقوة وتمسكا بالكتاب واصرارا على حقها في أن تعيش وفقه أي وفق ذاتها ،، ولكن ضمن الصراع الدولي المستقطب حول الإسلام لا بدّ من جهود وتضحيات هائلة وتخطيط وإدارة فائقين وتوكل عظيم حتى تكون الحركة الإسلامية هي العدسة التي تتجمع فيها كلّ الأشعة المتفرقة لتحولها إلى نار محرقة للظالمين ونور هاد للحائرين والمستضعفين ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

الملكية الزراعية في الإسلام

هيكل عام للاقتصاد الإسلامي :

لقد غدا المشكل الاقتصادي – نتيجة عوامل كثيرة – على رأس مشكلات الإنسان المعاصر والحكومات المعاصرة . بل غدا يمثل التحدي الأساسي لكل نظام ولكل أيديولوجية . ولأن الإسلام معنيّ بمشكلات الإنسان لأنه إنما جاء من أجل الإنسان كان على الحركة الإسلامية أن تبرز معجزة الإسلام في حل المشكل الاقتصادي على نحو يضمن فعالية الإنسان المنتج وامتلاكه لقيمة عمله كما يضمن التوزيع العادل للمنتوج وتوفير الحاجة للجميع .

الإطار :

إنه لا سبيل لحل المشكلات الانسانية الكبرى بغير وضعها في إطار محدّد، ويتكون الإطار في المشكل المطروح من عنصرين أساسيين :

- عنصر عقائدي ثقافي ،
- عنصر جغرافي سكاني .

الإطار العقائدي :

إن المشكل الاقتصادي الذي تعيشه البشرية اليوم رغم طغيان جانب الأرقام والمخططات في الحديث عنه هو في رأينا مشكل قيمي

حضاري قبل كل شيء .. يتمثل أساساً في الفلسفة المادية ، فلسفة السيطرة ، والقوة ، واللّذة ، والمنفعة التي تشكل الأساس النظري لحضارة الرجل المسيطر على العالم ، حضارة الغرب .. تلك الفلسفة التي لم تعترف بأي معنى للإنسان يتجاوز كونه جسدا ، لا تتعدى قيمته من الحياة ، اللّذة والسيطرة .. تلك الفلسفة التي جعلت من الإنسان إنها يفرض إرادته على أخيه الإنسان ويستغله كيفما شاء ولم لا طالما أن الحق هو إرادة الأقوى ، والغاية ، مزيد من اللّذة ؟؟

انه على عاتق هذه الفلسفة تقع مسئولية المآسي الكبرى التي يعيشها الإنسان المعاصر .. الحرب ، والاستعمار ، والفقر ، والاستغلال ، والعنف .. ومن ثم طالما لم تقع ثورة على هذه الفلسفة الدّهرية ﴿ وقالوا ما هي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ فستظل المشكلات الإنسانية ومنها المشكلات الاقتصادية بعيدة عن الحل بل ستزداد تفاقما ويزداد الأثرياء ثراء والفقراء فقرا ..

والثورة على الفلسفة المادية لا تعني بحال الارتماء في أحضان الفلسفات الخيالية والمثالية ، وازدراء الجسد وما يتوق إليه من متع كلا .. وإنما النظر إلى الإنسان نظرة شمولية تستوعب الجسد وحاجاته والروح وأشواقها .. والعقل ومقتضياته وكون الإنسان عضوا في جماعة لها عليه الحقوق .. كل ذلك في توازن واعتدال لا يخل ببعد من هذه الأبعاد على حساب الأبعاد الأخرى .. وهذه النظرة لا تجد صيغتها المتوارثة إلّا في الإسلام .

١ – **مفهوم التوحيد**: وهو جوهر العقائد الإسلامية ويعني رفض كل أشكال الألوهية المزيفة التي تفرض استعباد الإنسان سواء ظهرت في صورة صنم يتمسح الناس على اعتابه ويقدمون له القرابين أو في صورة سلطة سياسية مستبدة تستذل الناس وتفرض عليهم الديكتاتوريّة وتملك التصرف في حاجياتهم المادية والمعنوية أو في شكلي شركات رأسماليّة تحتكر الثروة وتسخر البشر في تنميتها وتسرق ثمار عملهم فلا يأخذ العامل من جهده إلّا القدر الذي يتبلغ به لمواصلة جهده في تكديس الثروة الرأسمالية. إن في إقرار عقيدة «لا إله إلا الله» تحريراً للإنسان من الداخل والخارج، فلا يخشى شيئاً إلّا الله، ولا تستعبده سلطة، إنها قلع للاستغلال من جذوره وليس مجرد تغيّر لموقعه.

٢ – **ملكية الله وخلافة الإنسان**: إن هذا الكون بكل ما ومن فيه ملك لله لا شريك له فيه، ومصادر الثروة في هذا الكون يتصرف فيها وفق إرادة من استخلفه ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾.

وهذا الاستخلاف في التصرف في الثروات انما استخلاف من الله للجماعة، فالجماعة هي المسؤولة أمام الله عن تصرف أفرادها في

---

(١) ذهب إلى اعتبار الملكية وظيفة اجتماعية في الإسلام عدد كبير من مشاهير العلماء العاملين في هذا العصر منهم مصطفى السباعي ومحمد الغزالي والبهي الخولي وسيد قطب وعبد القادر عودة وفتحي عثمان وعلال الفاسي وأبو زهرة – وسواهم كثير. وقد حدد سيد قطب معنى ملكية وظيفة اجتماعية بقوله «وأول مبدأ يقرره الإسلام بجوار الملكية الفردية أن

فما الإسلام:

الإسلام هو منهج الحياة الذي ارتضاه الله للإنسان فرداً وجماعة وللمجموعة البشرية كلها .. وتستند مناهج الحياة على خلفيات فكرية وعقائدية توجّه الحياة العملية وتمدّ العاملين بحوافز العمل الضرورية .. والصلة بين المناهج وأسسها الفلسفية تزداد تماسكا وتلاحماً على قدر ما في تلك المناهج من شمول في الرّؤية .. وقد تكون تلك الأسس التي يقوم عليها نظام ما واضحة بارزة كما هو الحال في الاشتراكية الماركسية وقد تكون على قدر أقل من الوضوح كما هو الحال في النظم الرأسمالية حيث تسري بشكل خفي النظرة المادية للإنسان وفلسفة المنفعة أو اللذّة .. والفصل بين الحياة الروحية والماديّة ..

أمّا بالنسبة للإسلام باعتباره رؤية شاملة للكون والإنسان والحياة وما بعد الحياة، فإن التماسك بين أجزائه يبلغ حدّا بعيداً لدرجة أن تلك الرؤية الفلسفية تسري في الكل - بشكل بارز جداً - سريان الماء من الجذع إلى جميع فروع الشجرة وإن بعدت ..

فما تلك الأسس الفكرية والفلسفية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي الإسلامي والاقتصادي منه بشكل خاص ؟

يكاد المنظّرون الإسلاميون الذين كتبوا في النظام الاقتصادي الإسلامي يجمعون على اعتبار أسس الاقتصاد الإسلامي تتلخص في المفاهيم والأفكار التالية :

١ – **مفهوم التوحيد**: وهو جوهر العقائد الإسلامية ويعني رفض كل أشكال الألوهية المزيفة التي تفرض استعباد الإنسان سواء ظهرت في صورة صنم يتمسح الناس على اعتابه ويقدمون له القرابين أو في صورة سلطة سياسية مستبدة تستذل الناس وتفرض عليهم الديكتاتوريّة وتملك التصرف في حاجياتهم المادية والمعنوية أو في شكلي شركات رأسماليّة تحتكر الثروة وتسخر البشر في تنميتها وتسرق ثمار عملهم فلا يأخذ العامل من جهده إلّا القدر الذي يتبلغ به لمواصلة جهده في تكديس الثروة الرأسمالية. إن في إقرار عقيدة «لا إله إلا الله» تحريراً للإنسان من الداخل والخارج، فلا يخشى شيئاً إلّا الله، ولا تستعبده سلطة، إنها قلع للاستغلال من جذوره وليس مجرد تغيّر لموقعه.

٢ – **ملكية الله وخلافة الإنسان**: إن هذا الكون بكل ما ومن فيه ملك لله لا شريك له فيه، ومصادر الثروة في هذا الكون يتصرف فيها وفق إرادة من استخلفه ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾.

وهذا الاستخلاف في التصرف في الثروات انما استخلاف من الله للجماعة، فالجماعة هي المسؤولة أمام الله عن تصرف أفرادها في

---

(١) ذهب إلى اعتبار الملكية وظيفة اجتماعية في الإسلام عدد كبير من مشاهير العلماء العاملين في هذا العصر منهم مصطفى السباعي ومحمد الغزالي والبهي الخولي وسيد قطب وعبد القادر عودة وفتحي عثمان وعلال الفاسي وأبو زهرة – وسواهم كثير. وقد حدد سيد قطب معنى ملكية وظيفة اجتماعية بقوله «وأول مبدأ يقرره الإسلام بجوار الملكية الفردية أن

الثروة ، فالجماعة مسئولة عن تطبيق العدل في توزيع الثروة وهي مسئولة ثانية عن تنمية الثروات واستغلالها .

وهناك نوع آخر للاستخلاف هو استخلاف الجماعة للأفراد في التصرف في الثروة ممّا يسمى بالملكية الخاصة ، وهي استثمار الأفراد للثروات بما يخدم مصالح الجماعة . فكل ملكية خاصة تتعارض مع مصلحة الجماعة فلا اعتبار لها . ومعنى ذلك أن الفرد مسئول أمام الجماعة عن نوع تصرفه في الثروة التي تحت يده ، فكل تصرف فيه إضرار بالجماعة موجب لنزع تلك الثروة وردها إلى المستخلف وهو الجماعة .

وإذا كان التوحيد يعني أن المالك هو الله دون غيره من الآلهة المزيفة ، فإن هذا المالك الوحيد إنما يتصرف وفق العدل ، أي لا يؤثر فرداً على فرد ، ولا يمنح حقاً لفئة على حساب فئة بل يستخلف الجماعة الأصلح . **فالخلق كلّهم عيال الله فلا حق لفرد أن يستأثر بثروة والناس جياع** . فالرجل وجهده ، والرجل وحاجته .

فالأرض كلّها مائدة الله والخلق كلّهم عباده يأخذون منها على قدر جهودهم دون إسراف ، ولا حرمان بسبب عجز ، ولا احتكار ، ولا ظلم ولا استغلال . عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « العباد عباد الله والبلاد بلاد الله من أحيا شيئاً من موات الأرض فهي

الفرد أشبه ما يكون بوكيل في هذا المال عن الجماعة ، وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكاً ، وأن المال في عمومه إنما هو أصلاً حق الجماعة ، والجماعة مستخلفة فيه عن الله . العدالة الاجتماعية ص ١١٤ ط ٦ عيسى الحلبي .

له ، وليس لعرق ظالم حق » أخرجه البيهقي وصححه السيوطي . وزاد أبو داود قال عروة : (أشهد أن رسول الله ﷺ قضى أن الأرض أرض الله والعباد عباد الله ومن أحيا أرضا مواتا فهو أحق بها) .

فملكية الإنسان لا تعدو تمكينه من حق الانتفاع وفق مصلحة الجماعة ، إذ لا يتصور في حق العباد ملك الرقاب ، وإن أطلق توسعاً فالملك في الحقيقة هو لله تعالى .

أما الإنسان فليس له سوى حق الانتفاع بإذن من الشريعة ، فإنما شرع الملك للانتفاع . وليس في الإسلام إذن مجال للحديث عن حق طبيعي للملكية ، وإنما الملك إذن من الشارع ينتفع به الفرد تحت رقابة الجماعة وهذا يعني أن الملكية وظيفة اجتماعية ..

وهذا ما يجعل التصور الإسلامي للملكية مخالفاً تماما للتصورات السائدة في العصر ، الرأسمالية منها التي تقدس التملك وتعتبره حقا طبيعيا (فرع لغريزة حب البقاء أو الأنانية) والتصورات الاشتراكية التي ترى في الملكية الفردية مصدر الشرّ والاستغلال فتلغيها لتجعل من الأفراد عبيداً عند الدولة والحزب .. أما الإسلام فلا ينظر للملكية من حيث هي شرّ ؛ وإنما الذي يجعلها خيراً أو شراً الإطار الفلسفي الذي توضع فيه . وإنما تحولت الملكية إلى مصدر للاستغلال أو للقهر في المجتمعات الغربية بسبب التصورات المادية الضيقة التي وضع المشكل في إطارها .. للفرد في المجتمع الإسلامي أن يملك ما ينتفع به وينفع غيره تحت رقابة من ضميره الديني وإشراف من المجتمع ، فإذا

لم يؤد الوظيفة الاجتماعية للملكية بسبب تعطيلها عن الانتاج أو تحويلها إلى سبب استغلال لغيره ضرب على يده ولو بالانتزاع دون مقابل .

﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما وأرزقوهم فيها وأكسوهم ﴾ النساء ٥ .

« لا حق لمحتجز بعد ثلاث » رواه أبو يوسف في الخراج .

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ التوبة ٣٣ .

٣- **الإيمان بالحياة بعد الموت (المعاد)**: في ظل التصورات المادية الجاهلية تغدو الحياة فرصة الفرد الوحيدة لاقتناص أكبر قدر ممكن من اللذائذ.. فينمو بين الأفراد والمجتمعات التنافس والصراع لاحتياز الثروة وكنزها وتحقيق الذات، فيغدو الإشباع المسعور هو الثمرة الطبيعية لهذه الفلسفة التي تنظر إلى الموت على أنه النهاية الأبدية للحياة، ويتصرف الإنسان بنهم وشره طمعاً في تحقيق ذاته وخلودها .

فجاء الإسلام بنظرة مخالفة لهذه تماما ، فهو ينظر إلى الحياة لا على أنها فرصة للذة والسيطرة،ولا على أنها حقيرة منبوذة ،وإنما هي مجال النضال من أجل تحقيق الكمال الإنساني (الخلافة) وتجسيد المثل الأعلى في سيادة الحق والعدل والخير ودحر الظلم والشر والفساد ، وأنه بقدر نضالنا في الحياة على هذه الجبهة بقدر ما نضمن سعادتنا الأبدية بعد الموت . والعكس أنه بقدر نكوصنا في هذه المعركة

وتخلينا عن مدافعة قوى الشر في أنفسنا وواقعنا بقدر ما نشقى في هذه ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ طه ١٢٧ على نحو أن الفرد المؤمن يشعر أنه بقدر ما يتنازل عن لذاته الخالصة في هذه لفائدة غيره بقدر ما يفوز باللذات الكبرى في الآخرة، والعكس أنه بقدر ما تستبد به أنانيته فيرضى لنفسه بأكبر قدر ممكن من اللذائذ ولو على حساب غيره بقدر ما يحرم في الأخرى.

إن ما يتضمنه الدين من هذه الرّؤى والتعاليم وما وضعه من وسائل وطرائق ليجعلها تتغلغل في أعماق الإنسان ومشاعره وتؤثر في حياته وعلاقاته كالصلاة والصيام .. كفيل بتقديم أسس وقواعد لنمط آخر من الإنسان والمجتمع والحضارة .. وإحداث ثورة على مستوى العلاقات البشرية اليوم ومنها العلاقات الاقتصادية ولا يعني هذا بحال أن الإسلام يكل أمر تحقيق العدل الاجتماعي إلى عمل التّثقيف والتوعية والتربية ، كلا فالإسلام ليس مجرّد دين ، إنّه دولة أيضا همّها قيام القسط بين النّاس ولو باستعمال الزجر ﴿ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ الحديد ٢٤ وذهب ابن تيمية في السياسة الشرعية إلى أن المقصود بالحديد في الآية سلطان الدولة .

ومن جهة أخرى فإن الإسلام ينطلق من اعتبار حريّة الإنسان قيمة أساسية لا ينبغي التساهل في التضحية بها ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه القيمة التي تمثل الجوهر الإنساني وبين ضرورات العدل في العلاقات البشريّة ؟ الملاحظ هنا أن الفلسفات التي ألحّت على قيمة

الحريّة ضحت من أجلها بمبدأ العدل، والعكس فعلت فلسفات أخرى، بينما الإسلام يقدم في رؤيته الإنسانيّة حلاً لهذه المعادلة الصعبة على نحو يجعل الحرية تعمل بوعي في خدمة العدالة عندما توضع تلك الحرية في إطار يتجاوز المجال الدنيوي الضّيق ليمتد عبر حياة الخلود بعد الموت .. فيقبل المسلم عن وعي على التضحيّة بذّاته الخاصة لصالح الآخرين مرضاة لله عزّ وجلّ وضماناً للسعادة الأخروية .. ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ﴾ «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء» «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» – فإذا عجزت التربية في توجيه الحرية في خدمة العدالة، واتجهت الحرية توجهها أنانياً مخرّباً تدخلت الدولة لتضع الأمور في نصابها .. فعلى قدر فشل التربية وعجز الحرية يتّسع حجم تدخل الدولة والعكس كذلك .

إن معادلة التوفيق بين الحرية والعدالة، بين الذاتية والغيريّة تمثل المعضلة الأساسية في العلاقات البشريّة، ولا حل لها إلا في الإسلام .

٤ – **الأخوة**: ينطلق الإسلام في نظرته للمجتمع من اعتباره وحدة عضوية متفاعلة متساندة متضامنة، وتنطلق هذه الوحدة من الاشتراك في الأصل الإنسانى ﴿إنا خلقناكم من نفس واحد..﴾ ثم وحدة المعتقد ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ .. فليس المجتمع بل ليس العالم في صورته المبتغاة مجموعة تكتلات مصلحية عرقية أو ثقافية تتصارع

وتتقاتل على الكسب أو السيطرة.. وإنما عائلة (الخلق عيال الله) تجمع بينهم روابط الأخوة.. وهذه الأخوة ليست مجرد مشاعر من التحابب والتوادد، بل هي مشاركة وجدانية واجتماعية وحقوق شرعية توجب على الأخ أن يستشعر هموم أخيه وأن يعمل على التخفيف من وطأتها على الأقل «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عليه كربة من كرب يوم القيامة» «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». يعلق أحد كبار رواد التفكير الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام العلامة الثائر (ابن حزم) رحمه الله على الحديث الأخير فيقول: «متى تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه» وعرّض البنيان الاجتماعي كلّه لاختلال التوازن المهلك ﴿وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ البقرة ١٢٣ فاحتكار الثروة في يد القلة قضاء على المجتمع بالتمزق والدمار.

والحد الأدنى المطلوب بذله لحفظ التوازن الاجتماعي هو الزكاة.. فإن لم تكف الزكاة بسبب ما حدث من اختلال فادح كان حد الانفاق بقدر ما يعيد التوازن إلى المجتمع حتى وإن اقتضى ذلك اقتسام كل ما في المجتمع من الثروات بالسوية. فقد أثنى الرسول ﷺ على الأشعريين وهم قبيلة فقيرة من جنوب اليمن: (رحم الله الأشعريين كانوا إذا أرملوا جمعوا أقواتهم في كيس واحد وأقسموها بالسّوية فأنا منهم وهم منّي).

وليس أمر إعادة التوازن موكولاً لمشاعر الأغنياء، بل هو واجب الدولة إن لم يقوموا به من تلقاء أنفسهم. يقول الشيخ الثائر (وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولا سائر أموال المسلمين، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس) المحلي ج ٦ ص ١٥٦ .

فإذا تخلى أصحاب المال عن واجبهم تجاه إخوانهم وتواطأت معهم السلطة كان على الفقراء أن يعتمدوا على أنفسهم في افتكاك حقوقهم المغصوبة ولو مع استعمال القوة :

قال ابن حزم في (المُحَلَّي) : (من عطش فخاف الموت فرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده وأن يقاتل عليه ولا يحِلّ لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه ، لأن فرضا على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك فان قُتِلَ (الجائع) فعلى قاتله القود – أي القصاص – وان قُتِلَ المانع فإلى لعنة الله ، لأنه منع حقا وهو طائفة باغية .. قال تعالى ﴿ فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله ﴾ ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق .

فالأخوة بأبعادها الإنسانية والاجتماعية والعقائدية هي أساس المجتمع الإسلامي وليس الصّراع .

ولا حرمة لمال ولا لثروة إذا غدت هذه الأخوة مهدّدة . ولا حرمة لمال أو ثروة إذا تعرض البناء الاجتماعي للاختلال وفقد خاصيته الأساسية : التساوي أو التقارب والتعادل فيتعرض للهلاك :

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .

هذا هو الاطار الثقافي أو العقائدي الذي سنتحرك خلاله بحثا عن حلّ للمعضل الاقتصادي في بلادنا .

الإطار الجغرافي والسكاني :

ولأن العقائد لا تؤثر إلّا من خلال تفاعلها مع الأرض مع الزمان والمكان .. كان لابد من تحديد للإطار الأرضي والجغرافي السكاني الذي نعتبره المجال الملائم لحل المعضل الاقتصادي وغيره .

إنّ من العوامل الرئيسيّة في التخبط الذي تعيشه بلادنا على كل المستويات غياب الإطار العقائدي الشامل .. الغياب الذي أفقد العامل كل حافز معنوي للإنتاج والتضحيّة ، والذي فرض على بلادنا أنماط مجتمعات الاستهلاك ، على نحو أن النظام أوجد في المواطنين رغبات عجز عن تلبيتها ، فضلاً عن قيام الدولة بالدّور المناقض لمهمتها الأساسية في أنها كابح لجمُوح الحرية الفردية وإعادة التوازن ، وتحولت إلى أداة للاستغلال ، بل إنها تقدم الضمانات الأساسية لاستمرار الاستغلال (قانون ٧٢ و٧٤) وتحميه بمختلف الوسائل ، فبدل أن

يكون المسئول نموذجا في التواضع والتقلل غدا العكس هو الحاصل وغدت المسئولية أقرب طريق للإثراء. وغدت المسئولية أقرب طريق للثروة على حين يمنع الإسلام الجمع بين سلطة المال وسلطة الحكم، وكاد المواطن لا يحس بالدولة إلا من خلال وظيفة واحدة من وظائفها هي الوظيفة الأمنية.

هذا عامل، أما العامل الآخر فهو الوضع السّيء، أو الإطار غير المناسب الذي وضع فيه المشكل الاقتصادي ببلادنا.

فإذا كان الإطار العقائدي الذي وضع فيه المشكل الاقتصادي كما هو الحال في بقية البلدان الإسلامية هو فلسفة الغرب في اللذة والرفاه وما يتولد عن ذلك من التنافس على الاستهلاك .. فإن الإطار الجغرافي هو الوطنية التونسية .. فلقد اجتهد منظروا الحزب من زمان بعيد في الحديث عمّا أسموه مرة بالشعب التونسي ومرّة بالأمة التونسيّة .. وبقطع النظر عما إذا كانت تونس شعبا أو جزء من شعب أو هي أمّة أو جزء من أمّة .. فإن الإطار الجغرافي والسكاني الذي نحتفل للمرة الخامسة والعشرين بـ(استقلاله) ليس **في وسعه أن يكون مستقلا** .. إنّ حجمه الجغرافي والسكاني لا يمكنه في عالم يتّجه قدما نحو التكتلات الدّولية الكبرى إلا لأن يكون ذيلا لتكتل من تلك التكتلات :

(السوق الأوربية المشتركة مثلا) فتفرض عليه شروطها المجحفة في التعامل ويضطرّ هو للقبول .. وهكذا تحولت بلادنا في ظل الإطار الجغرافي والسّكاني الذي ارتضيناه لأنفسنا إلى وضعيّة التابع المنهج

المستَغَل من طرف أوربا .. مما يجعل الحديث عن الاستقلال في هذا الإطار ضربا من التمويه والتغني بالشعارات .

إن على التونسيين إن أرادوا أن يعيشوا عصرهم ويفقهوا اتجاهه أن يتخلّوا عن هذا الوهم (الاستقلال) ويختاروا أحد سبيلين :

١ – إما أن يستمروا على التبعيّة الذليلة لأوربا وأمريكا والاكتفاء من الاستقلال بالشعارات والنشيد الرسمي .

٢ – أو أن يعملوا على تحطيم هذا الإطار السياسي الجغرافي الضيق الذي حشروا أنفسهم فيه ليندمجوا في إطار أرحب لا يجعلهم في وضع التابع بل في وضع الشّريك . وقضية الإطار لا تحدد بالقرار السياسي بل تحدد على ضوء معطيات ثقافيّة وتاريخية وجغرافية .

إن القرار السياسي يستطيع أن يربطنا بالغرب ولكنه لن يجعلنا غربيين لأننا لا نريد ذلك ، هذا إذا قبل الغرب وهو لا يريد .. إننا كنا وسنبقى عربا مسلمين ..

إن الإسلام لا يقدم لنا فقط الإطار العقائدي لحل مشكلاتنا ، بل يقدم لنا أيضا الاطار الجغرافي والسّكاني والتاريخي على اعتبار أننا جزء من أمة تمثل خمس سكان العالم وخمس المساحة الأرضية وتحتوي على أضخم الموارد والطّاقات في العالم ..

إننا نصر على أن الإطار الطبيعي الملائم لعقائدنا وعصرنا ليس هو بحال (الوطن التونسي) ولا الايديولوجية القومية أو الوطنية التي

تفوح منها رائحة التبعية والتغريب ، وإنما هو الإسلام والعالم الإسلام والأمة الإسلامية بدءاً من المغرب العربي إلى العالم العربي إلى العالم الإسلامي ، إلى الشعوب المستضعفة عامة في أفريقيا وآسيا . هذا هو الإطار الذي يجعل للجهود المبذولة في حل مشكلتنا رصيداً ومعنى وجدوى .. بل ان في هذا الإطار تجد مشكلات ما يسمى بـ (العالم الثالث) عالم المستضعفين حلولها .. وعندئذ يمكن أن يقوم حوار حقيقي بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب ... بل إنّ هذا الإطار كفيل بأن يقدم للغرب الغارق في مشكلاته الاقتصادية خيوطاً من النّور تهديه إلى أنه طالما استمّر على تأسيس حياته على فلسفة اللذّة والمتعة والسيطرة والقوة ، ولم يعزم على القيام بثورة كبرى على ماديته على غرار ثورته السابقة على الروحانية الكنسيّة الزائفة فلن يجد حلاً لمشكلاته الاقتصادية مهما رصد لها من خبراء اقتصاديين لأنّها مشكلات ذات طابع إنساني بحت .

الإطار التاريخي المرجعي لحل[*]
المشكلة الاقتصادية في الإسلام

تظهر قيمة كل مذهبية (أيديولوجية) في تنظيم العلاقات البشرية عند مرورها إلى الطور التطبيقي. ورغم أن الأيديولوجية في تفاعلها مع واقع معيّن لا تثبت على حال واحد، بل تظل تنتقل من مرحلة إلى أخرى، فإن المرحلة أو المراحل الأولى من التطبيق، حيث يكون الحماس الأيديولوجي مهيمناً على الثائرين يتحدّى كلّ الصعاب ولا يبالي بضخامة التّضحيات، تظل تُمثّل في تاريخ الأيديولوجيا أوج العطاء والتجسيد الأمثل والأقرب لروح تلك الأيديولوجيا، والتفسير التطبيقي لتلك النظريّة، والمرجع الدائم للفهم ومعرفة مالم تفصح عنه النظرية .. وعلى هذا الأساس يمكن أن نعد مرحلة التطبيق الإسلامي في المدينة في العهد النبوي وخلال أهم فترات العهد الراشدي المرجع التفسيري للنظرية الإسلامية السياسية والاجتماعية، ويمكن أن نصطلح على تلك الفترة بعهد التشريع.

عهد التشريع والتأسيس والبناء :

لقد شكلت الهجرة حدثاً خطيراً في تاريخ الإسلام إذ انتقلت به من مرحلة الدعوة المضطهدة إلى مرحلة الدعوة الحاكمة، ومن

---

* ألقيت هذه المحاضرة لأول مرة بجامع صاحب الطابع بتونس، عشية السبت ٢ مايو سنة ١٩٨١.

مرحلة التبشير بعالم جديد إلى البدء بتأسيسه والعمل على تجسيد مثل تلك الدعوة .

لقد كان اقتصاد يثرب يقوم على الزراعة والتجارة وبعض الصناعات الخفيفة .. وكانت الثروات مركزة في يد مجموعة من العائلات اليهودية الثرية والعائلات العربية المتحالفة معها . ولقد نَجح اليهود في إثارة القبائل على بعضها فتمزّق النسيج الاجتماعي إلى حد بعيد ، وازدادت حاجة المتقاتلين إلى السّلاح وإلى المال مما ألجأهم إلى الاقتراض من اليهود بفوائض فظيعة وضعت مع مرور الزمن أهم الثروات في أيديهم ، وجعلت القطاع الأوسع من الجماهير أجراء محرومين .

ولقد زاد هذه الوضعية الاجتماعية الغير المتوارثة اختلالاً قدوم مئات من العائلات التي لا تملك غير إيمانها وقوة عملها (المهاجرون).. فكان على القيادة الجديدة أن تظهر ما في جوهر النظرية التي تبشر بها من قدرات تنظيمية لتوفير الحاجات الضروريّة لكل مواطن ، وتسخير كلّ قوة إنتاجيّة في عمل الإنتاج ، والقضاء على أصول الحيف الاجتماعي وإعادة توزيع الثروة على أساس يتيح لكل مواطن التمتع فى غير إسراف بجهود عمله ، ويوفر للجميع الحاجات الضرورية . فكانت سورة البقرة وهي أوّل ما نزل بالمدينة تمثل التوجّهات الكبرى للمجتمع الجديد .

١ - **الدعوة إلى الانفاق في سبيل الله** : وتمثل الزكاة حدّه الأدنى ، وانفاق ما زاد عن الحاجة حده الأوسط ، والإيثار حده الأعلى :

﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ الزائد عن الحاجة . ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ﴾ (من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر به ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) . قال أبو سعيد : فذكر أصنافاً من الفضل حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في الفضل) .

٢ - **النهي عن استغلال الإنسان جهود أخيه الإنسان** : وصور الاستغلال كثيرة ، أهمها على الاطلاق الرّبا الذي شنّ الإسلام عليه حرباً لا هوادة فيها ،وقرر محقه معتبراً صاحبه ملوعنا مطروداً من رحمة الله .

ورغم أهمية العفة في العلاقات الجنسيّة فقد اعتبر الإسلام « درهم ربا يأكله الإنسان أشد من ٣٦ زنية » (رواه أحمد).

ولم يعتبر الإسلام الصورة البدائية للربا المتمثلة في عجوز يهودي يقرض محتاجاً ديناراً بزيادة معينة هي الصورة الوحيدة للرّبا ، بل إن كل صورة لاستغلال الإنسان ثمار جهود أخيه الإنسان هي من الرّبا . روى الحاكم (الربا ثلاثة وسبعون بابا ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمّه) ولا شك أنّ تطور العقلية المادية الجشعة في هذا العصر جعلتنا في وضع أنسب لإدراك ما ينطوي عليه هذا الحديث من إمكانيات كبيرة يمكن أن يتفتق عنها الذهن الإنساني المقطوع عن الله ، يستغل بها جهود أخيه الإنسان .. إن الربا معاملة ظالمة تخرج المال عن مهمته الأصلية من كونه واسطة للتعامل بديلا عن المقايضة إلى كونه سلعة تدرّ ربحاً مضموناً بدون أية مخاطرة . وكان منع الربا في مستوى التعامل المالي ضربة قاسمة للبناء الاقتصادي الجاهلي اليهودي سرعان ما

حرّكت اليهود بقوة ضد الدولة الإسلامية الحديثة وما تمثله من مدّ ثوري .

أمّا على المستوى الزراعي ، والزراعة تمثل في المدينة أوسع قطاع يستوعب القوة العاملة ، وكانت أهم الحقول إما على ملك اليهود أو على ملك مجموعة من العائلات .. فكان استغلالها غالبا يتم بواسطة أجراء يتعاقدون مع ملاك الأرض على حصة ممّا تنتج الأرض ، الربع أو الثلث أو الخمس ... فساء النبي عليه السلام أن تتحول الأرض وهي مائدة الله وضعها للأنام يأخذون منها على قدر جهدهم ، أن تتحول إلى مال يدر ربحاً بدون أي جهد يبذل ممن وضع يده عليها ، فلم يتردد في وصم كل الصّور التي أدرجت بعد ذلك في كتب الفقه تحت أسماء : المخابرة ، المزارعة ، المغارسة ، المساقاة ، بأنها صور من الاستغلال الربوي .

في رواية لأبي داود عن رافع رضي الله عنه : (أنه زرع أرضا فمرّ به النبي ﷺ وهو يسقيها فسأله لمن الزرع ولمن الأرض فقال : زرعي ببذري وعملي ولي الشطر ولبني فلان الشطر فقال : أربيتُمَا فردّ الأرض على أهلها وخذ نفقتك) . ولقد استفاضت أحاديث النبي ﷺ في النهي عن كل الصّور التي يستغل ملاك الأرض بواسطتها جهود العمال .

روى مالك بسنده عن رافع أن رسول الله ﷺ نهى عن كراء المزارع وعنه أيضا نهى الرسول ﷺ عن إجارة الأرض .

وعن جابر قال : كان لرجال منّا فضول أرضين فقالوا نؤاجرها بالثلث والربع والنصف فقال النبي ﷺ من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، وفي رواية أخرى ولا يؤاجرها إياه ولا يكريها ، زاد في رواية فإن أبي فليمسك أرضه . هذا هو الخير ، ليزرع بنفسه أو ليتنازل عن الأرض لغيره ، أو ليمسك الأرض مع أن ذلك منهي عنه لما فيه من تعطيل للطاقات ، ومن ثم وضع حدّاً لهذا الإمساك لا يتجاوز ٣ سنوات لا حق لمحتجر بعد ثلاث ، فإذا تبين لولي الأمر عدم قدرة هذا المالك على استغلال أرضه بنفسه رفع يده عنها واعطاها لغيره .. إذ ما يملك الإنسان من هذه الأرض سوى وضع اليد الذي يعطيه الأولوية عن غيره في استغلالها .. فإن لم يفعل فقد مشروعية الاختصاص بها .. ولقد تدرج توجيه النبي ﷺ للملاك الذين تتجاوز أراضيهم إمكانياتهم الخاصة في استغلالها أن يسلموها لغيرهم ، تدرجت من الترغيب في ذلك وندبهم إليه إلى أمرهم بذلك ونهيهم عن استغلال جهود غيرهم ، وبلغ في الأخير حدّ ترهيبهم وإعلان الحرب عليهم .

روى أبو داود عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول من لم يذر المخابرة فليأذن بحرب من الله ورسوله .

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال : كنا نكري الأرض بالثلث والربع فقال رسول الله ﷺ من لم يترك المخابرة فليأذن بحرب من الله ورسوله .

واقعة خيبر :

وهكذا تمكنت القيادة الجديدة في أمد قصير من إقامة التوازن الاقتصادي في المدينة، حتى إذا جاءت السنة السابعة من الهجرة وأدرك النبي ﷺ ما تمثله قلاع اليهود من جيوب خطيرة داخل المدينة. هجم على إحدى هذه الجيوب (خيبر) وفتحها عنوة، فطلب أهلها السّماح لهم بالإبقاء على الأرض يعملون فيها ويزرعونها لأنهم أعرف بأراضيهم، ولهم شطر ما يخرج منها وللمسلمين الشطر الآخر، فصالحهم الرسول على ذلك على أن يخرجهم منها متى شاء.

وكان سلوك النبي ﷺ مع أهل خيبر مخالفاً لسلوكه مع بني النظير وبني قينقاع القبيلتان اليهوديتان اللّتان وقع إجلاهما من المدينة قبل ذلك وقسمت أموالهم وأراضيهم تسديداً لحاجات المسلمين إلى مواطن العمل. فلما حصلت الكفاية أبقى على أرض خيبر ملكا للدولة الإسلامية يدفع العاملون بها من اليهود خراجا أو جزية عنها.. وكان هذا التصرف في الأرض الأول من نوعه في التاريخ الإسلامي من حيث كونه يمثل بداية التشريع لملكية الدولة ... وقد توسعت هذه التجربة في عهد عمر رضي الله عنه وغدت ركنا أساسياً للاقتصاد الإسلامى (ملكية الدولة). وسنرى كيف أنّ الفقهاء لم يستطيعوا - بسبب النمو المحدود للثقافة الاقتصادية، وبسبب الواقع الاقتصادي المنحرف الذي تربّوا في ظله - أن يضعوا في الموضع المناسب توجهات النبي ﷺ في شأن الأرض إلى أنّها ملك لمن يزرعها، وفي شأن أرض خيبر (ملك الدولة).

وهكذا استطاع النبي ﷺ في فترة قياسية أن يضع حدّاً لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، فأعلن وهو يودع الأمّة في آخر بلاغ يوجهه القائد للأمة (أن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع وربا الجاهلية موضوع).

وتولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة فواصل السير على النهج، وتصدّى للثورة المضادة وقد استقطبت أغلب قبائل العرب، أولئك الذين لم يرتفعوا إلى مستوى رسالة الإسلام وتطلعاته الاجتماعية في العدالة والمساواة، فحيث لم يظهروا تراجعاً على المستوى العقائدي أصرّوا على التنكر للأبعاد السياسية للإسلام (والخضوع لسلطة مركزية بديلاً عن القبيلة)، وللأبعاد الاجتماعية (رفضوا الاعتراف بالزكاة). وإدراكاً من القائد الحكيم الحازم لما تمثله الأبعاد السياسية والاجتماعية في بنية الإسلام صمّم على أن يقاتل من فرّق بين الصلاة والزكاة .. وتمّ له ما أراد وقضى على الثروة المضادة وعلى أول محاولة علمانية.

ويأتي عهد بناء الدولة الإسلامية والدخول في مرحلة التشريعات الاجتماعية والإدارية الكبرى. عهد عمر رضي الله عنه، فيجسد هذا القائد الفذ ما كان مضمراً في الإسلام.. ويشرح ما كان مجملاً، ويوسع من حدود التجارب الإسلامية في عهد صاحب الدعوة ما كان ضيقاً، فتشهد العدالة الاجتماعية أروع أيامها وأحلاها في هذه المرحلة .. ويتحقق الاكتفاء بل الرخاء للجميع بقطع النظر عن جنسه ودينه ونسبه، وتكتسح أمواج الإسلام المتدفقة أغلب أرجاء العالم

القديم . وتواجه القيادة بمشكلات وتحديات جديدة لا عهد للمسلمين بها فتستجيب للتحدي ولا تتقاعس على دفع حركة الاجتهاد الخلاقة إلى أقصى مداها ، واضعة في الحساب المقاصد العامة للشريعة وما حفلت به تجربة الحكم النبوي من دلائل ومقاصد .. فتنتهي إلى معالجة الواقع المتطور المتجدد بحلول تحفظ لحركة التطور الإسلامي اتجاهها الطبيعي نحو مزيد من الحق والعدل والكرامة للإنسان .

فعندما تكلّلت جهود المسلمين بالنجاح في الإطاحة بطواغيت فارس والروم ، وورث المسلمون عنهم ثروات طائلة كانت تبدّد على شهوات الملوك ، وجدت القيادة نفسها ازاء مشكل معقد ، هل تقرّ ما طلب به المحاربون من تقسيم كلّ الغنائم بما فيها الأرض المفتوحة إجراء لآية قسمة الغنائم على ظاهرها ، ممّا سيحول الفاتحين إلى إقطاعيين يستغلون جهود شعوب بأكملها . أم يتمتعون من ذلك ، وتحال تلك الأراضي الواسعة إلى ملك عام للأمة إلى يوم القيامة ، يستفيد منها مباشرة من يعمل فيها وتستفيد منها بشكل غير مباشر كلّ الأمة عن طريق الخراج الذي وضع عليها والذي يصرف على الأمة في شكل خدمات دفاعية وصحيّة وثقافية وإدارية .. وذلك هو الذي اختاره القائد الفذّ بعد مشاورات واسعة .. وكان عمر رضي الله عنه يستلهم التجربة النبوية الرائدة في مقاصدها وغاياتها العليا لا في مجرّد القوالب والأشكال . ولا شك أن تصرف النبي مع أرض خيبر كان خير موجه لابن الخطاب رضي الله عنه في مسألة ما سمي بأرض السواد .. وهي تشمل كل الأرض التي فتحت عنوة : الشام والعراق

ومصر وشمال افريقيا وتركيا .. وكان تصرف ابن الخطاب رضي الله عنه بعد المشاورات الواسعة يشكل إجماعا للصحابة .. وقاعدة تشريعية اقتصادية فذّة ، لم تستطع الأمة بعد ذلك أن ترتقي إلى مستواها وأن تمدّدها لتشمل كل مصادر الثروة في البلاد فتعتبر على أنها ملك عام يأخذ منه كلّ بحسب جهده تحت رعاية مصلحة المجتمع .

إن الفتوح الإسلامية قد استطاعت نشر ألوية الثورة الإسلامية على أوسع رقعة من العالم القديم ، وكنست الخرافات والأباطيل وكثيراً من المظالم والطواغيت .. ورغم أن مؤسسات الدولة الإسلامية قد استطاعت أن تستوعب إلى حدّ ما مشكلات عشرات الملايين من أبناء الشعوب التي انتمت إلى الإسلام استوعبتها ثقافياً ودينياً ولغوياً ، ولكنّها لم تستطع أن تصهرها صهراً في بوتقة الدين الجديد ، فظلت آثار الثقافات القديمة قائمة ، وأنماط التعامل السياسي والاجتماعي سائدة .. مما أحدث اختلالا كبيراً في طبيعة تركيب المجتمع الإسلامي بين العدد الضئيل من النوعية الإسلامية الجيدة ، والكثرة الغفيرة من الملايين التي انتمت إلى الإسلام دون أن تصهر في قالبه . وظهر أثار هذا الاختلال فيما حدث من اضطرابات في عهد الخليفتين : عثمان وعلي رضي الله عنهما اللذين عجزا أن يحافظا على استقرار الحكم وسط مجتمع لا تزال العصبيات القبلية والقومية تفعل فعلها فيه ، بل أخذت في التضخم بفعل تناقص النوعية الجيدة من المسلمين وتنامي النوعيات الأخرى ، وانتهت التيارات الجديدة المتصارعة داخل المجتمع الإسلامي إلى سلسلة من التمزقات داخل الصف الإسلامي ، أفضت إلى الإطاحة بتجربة الخلافة الراشدة ليقوم البديل عنها الملك العضوض

الذي حافظ من الخلافة على أشكال ورسوم وعناوين، ومال إلى ممارسة أشكال الحكم السائدة في العصر مع الحرص على المحافظة على المظاهر والأشكال الإسلامية. وما لبثت هذه الردة السياسية أن ولدت ردة اجتماعية تمثلت في ظهور الارستقراطية القُرشية من جديد كطبقة مترفة تستثمر جهود المستضعفين من العرب ومن غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى.

وتحولت أرض السواد (أملاك الدولة) إلى إقطاعات أقطعها الحكام الظلمة رشوات إلى أقاربهم وعملائهم ونسوا تأكد نبيّهم : (إن الله لا يقدّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيهم حقّه) رواه الشافعي.

جاء في المغني لابن قدامة أن الناس سألوا عبد الملك والوليد وسليمان أن يأذنوا لهم في شراء الأرض، فأذنوا لهم على إدخال أثمانها في بيت المال. فلما ولّي عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أعرض عن تلك الأشرية لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون، ولم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك. وكتب كتاباً قرئ على الناس سنة ١٠٠ وأن من اشترى شيئاً بعد سنة ١٠٠ فإن بيعه مردود. فتناهي الناس عن شرائها.

ثم اشتروا أشرية كثيرة كانت بأيدي أهلها تؤدي العشر ولا جزية عليها. فلما أفضى الأمر إلى المنصور رفعت تلك الأشربة إليه فأراد ردها فقيل له : قد وقعت في المواريث والمهور واختلط أمرها.

وجاء في سيرة عمر بن العزيز رضي الله عنه لابن الجوزي : أن عمرا لما ولي الخلافة وجد أن كثيراً من الأراضي قد حازها بنو أمية فخطب قائلاً : أما بعد فإن هؤلاء قد أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها . وإنما قد رأيت أن ذلك ليس عليّ فيه دون الله محاسب ، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي) وقد دعّم موقفه ابنه عبدالملك فقال له : (أرى أن تردّها فإن لم تفعل كنت شريكا لمن أخذها) وهكذا وحدت الملكية الفردية على الأراضي التي كانت تابعة لبيت المال ، وقد حاول بعض السلاطين استرجاع هذه الأراضي مرة أخرى لبيت المال كما فعل الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ، وأراد أن يعيد لبيت المال كل أرض لا يثبت من هي تحت يده أنها ملكه ، فوقف العلماء في وجهه وعلى رأسهم الإمام النّووي .

صور الملكية :

لقد استقرت الملكية الزراعية على الصورة التالية :

١ - أراضي مملوكة لأصحابها .
٢ - أراضي تابعة لبيت المال .
٣ - أراضي مباحة (موات) .
٤ - أراضي موقوفة .
٥ - أراضي مملوكة ملكا عاما (كالطرقات والأسواق) .

التصرف في الأراض

سنتناول باختصار فيما يلي أهم الآراء الفقهية المتعلقة بالتصرف بصور الملكية التي ذكرنا ، وخاصة الملكية الخاصة وملكية بيت المال (أملاك الدولة)

الملكية الخاصة [1]

وبقطع النظر عن أصل هذه الملكية الخاصة مما سنعود إليه إن شاء الله ، يهمنا هنا أن نلقي أضواء كاشفة على أهم آراء الفقهاء في طرق التصرف في هذه الملكيات الخاصة ، حتى يتاح لنا مجال من المقارنة بين النصوص التشريعية (القرآن - الحديث - أهم مراحل الخلافة الراشدة) وبين آراء الفقهاء ، وهي ثمرة تعامل وتفاعل بين النص وبين الواقع الذي عاشوا فيه .

لقد اتضح لنا القصد التشريعي في القرآن والسنة وأعمال الخلفاء إلى قطع دابر استغلال جهد الآخرين ، وإلى اعتبار أن الناس شركاء في الثروة العامة يأخذ منها كل منهم على قدر جهده دون تبذير وحسب حاجته على كلّ حال (والأرض وضعها للأنام) (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون ﴾ ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ إلى جانب توجيهات النبي ﷺ الواضحة في منع كلّ شكل من أشكال الاستغلال ، وفي إلحاحه عليه السلام أنّ الأرضَ ليست في

ذاتها سلعة وانما هي وسيلة إنتاج ينتفع بها من يعمل بها ..
« الأرض لمن يزرعها »

كيف تعامل الفقهاء مع تلك النصوص الصريحة ؟

إذا عرفنا أن المدارس الفقهية المعروفة اليوم تكونت في المائة الثانية وما بعدها حيث حدث ما تعلمون من انحراف خطير في المسار الإسلامي ، وإذا اعتبرنا أن الفقيه بحكم كونه إنساناً ينشأ في مناخ ثقافي واجتماعي تسوده اتجاهات معيّنة فيتشبع به في مرحلة تكونه ، فإذا تفاعل مع النّص لا يفعل ذلك في المطلق وانما انطلاقاً من المكوّنات الثقافية التي نشأ عليها .. فإذا كانت مكّونات تلك البيئة زاخرة بكثير من الانحرافات أدركنا لماذا اختلف الفقهاء اختلافاً كبيراً في مسألة التصرف في الأرض وفي كل مسألة تتعلق بتنظيم المجتمع .

ففي مسألة التصرف في الأرض لم يكد الفقهاء يجمعون على صحّة صورة من صور التصرف فيها أو فسادها . وليس الأمر عائداً إلى النصوص بقدر ما هو عائد إلى المناخات الثقافية المختلفة التي تَكَونوا فيها . والسؤال الرئيسي هنا لا يتعلّق بمشروعية الملكية الخاصة أم عدم مشروعيتها ، فهذا سؤال ثانوي ضمن التصور الإسلامي حسب رأينا . وإنما ما هي الصّور المشروعة لاستغلال الملكية الخاصة ؟ هل يقتصر الأمر على أن يباشر صاحب الأرض بنفسه عملية استغلال تلك الأرض والانتفاع بها ، وذلك ما تَتّجه إليه مقاصد النصوص التشريعيّة بل ظواهرها ؟ أم هناك صور أخرى مشروعة لاستغلالها ؟

يكاد الفقهاء يجمعون على إقرار صور أخرى يتسع حجمها عند البعض ويضيق عند البعض الآخر. فمثلاً صورة كراء الأرض، أو المزارعة، المساقاة، المغارسة نجد الفقهاء قد اختلفوا اختلافاً واسعا حولها، بين مبيح لها وكاره لها وبين مانع وبين مفصل في الأمر[1].

فحيث أباحت الأحناف والحنابلة كل صور المزارعة وكراء الأرض اعتماداً على عمل النبي ﷺ في خيبر وغير ذلك، نرى المالكية تقتصر على منع كراء الأرض بجزء ممّا يخرج منها الربع أو الثلث ... لوجود الغرر، وترفض الشافعية رفضاً باتاً هذه المعاملة لنهي النبي ﷺ عنها يقول الشافعي في الأم: وإذا دفع رجل إلى رجل أرضاً بيضاء على أن يزرعها المدفوع إليه فما خرج منها فله جزء منه فهذا المحاقلة أو المخابرة أو المزارعة التي ينهي رسول الله ﷺ عنها. أما الرفض الجذري فيأتي من الفقيه الأندلسي الثائر العلامة ابن حزم يقول: (ولا تجوز إجارة الأرض أصلا لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها، ولا لشيء من الأشياء أصلاً لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ولا بغير مدة مسماة، لا بدنانير ودراهم ولا بشيء أصلاً فمتى وقع فسخ أبدا) غير أن ابن حزم أجاز المساقاة في النخل[2].

واعتبر فقهاء محدثون مثل أبو السعود أن واقعة خيبر لا تصلح للاحتجاج، إنها لم تكن معاملة شاذة كما ذهبت الشافعية، إنها لم تكن

---

(١) انظر مثلا « بداية المجتهد » لابن رشد.

(٢) ابن حزم « المحلي »

مزارعة . لقد هم الرسول بإخراج اليهود ثم لجأ إلى هذا الأسلوب في معاملتهم كإجراء سياسي لا كعقد مدني ، ليس هناك عقد لعدم توفر أركانه ، الإرادة الحرة وتسمية الأجل ، فمشاطرة النصف هنا جزية أو خراج وليست مزارعة . أما ما روى أن الصحابة كانوا يمارسون المزارعة على عهد الرسول فمستبعد لأن أحاديث النهي تسحب على الإجارة والمزارعة[٣] .

أما من الناحية الاقتصادية البحتة ، فإن الأرض ليست سلعة استهلاكية كما أنها ليست - أو أغلبها على الأقل - ليست من عمل الناس أو إنشائهم ، فينبغي أن لا تقارن إجارتها بإجارة الدار والآلة . وبالنسبة للمزارعة مهما كانت نتيجة المحصول فإن صاحب الأرض يضمن استرداد أرضه (رأسماله) بينما يخسر الشريك الزارع رأسماله من بذور وآلات وجهد .

أما المساقاة وهي أن يسلم صاحب الأرض أشجاره لغيره ليرعاها مقابل جزء من المنتوج فقد اختلفوا فيها بين مجيز ومانع .

وكذا الأمر بالنسبة للمغارسة .

ونحن أمام هذه الاجتهادات المتناقضة لا نملك إلّا التّمسك بالنص : الأرض لمن يزرعها .

---

(٣) أبو السعود نقلا عن « آراء من التراث » فتحي عثمان .

الأرض العنوة : أراضي الفتوحات :

لقد كان لإقطاع أئمة الجور دور كبير في نشر الملكية الخاصة في العالم الإسلامي. فلقد كانت الأرض زمان الخلفاء الراشدين أغلبها أرض خراج يقوم عليها أصحابها الأصليون ويؤدون لبيت المال قسما من المنتوج إذ رفض ابن الخطاب توزيعها على المقاتلين - رغم احتجاج البعض - حتى تكون لجميع المسلمين أبدا .

فعندما فتحت أرض العراق بعث إليه قوّاد الجند : أتقسم أرض الفتح الإسلامي كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر ؟ فأجاب (أرأيتم هذه الثغور ، أرأيتم هذه المدن العظام ، لا بد من شحنها بالجيوش ، فمن يعطي ؟ وغداً تكبر العيال وما بقي من أرض كسرى شيء) .

ولقد اختلف الفقهاء رغم إجماع الصحابة العملي في هذه القضية في شأن أراضي العنوة ، فذهب الإمام مالك إلى عدم الجواز مستدلاً بفعل الصحابة ، وذهب آخرون إلى ضرورة القسمة كما هو في سائر الغنائم[1]، وترك آخرون الخيار للإمام بين تقسيمها ووقفها على المسلمين ، فذهب الشافعي إلى وقفها بعد استطابة نفوس الفاتحين وترك الحنابلة الأمر للإمام . هل يجوز بيعها ؟ كره الحنابلة ذلك ومنع مالك ذلك .

---

(١) وذلك هو المفتى به في مذهب مالك . فقد ورد في « المختصر » لخليل « ولا يقطع معمور العنوة » وعلّق شارحه الإمام الزرقاني « ولا يقطع الإمام لأحد معمور أرض العنوة الصالحة للزراعة ولاعقادها أي لايجوز له ذلك لانها وقف بمجرد الاستيلاء بل امتناعاً ، وأما =

وقد خشي بعض الفقهاء من الإفتاء باسترداد أراضي العنوة من مالكيها خشية أن يكون في ذلك دعم للأمراء الظلمة وإعانة لهم على التسلط على النّاس . ولكن إذا كانت هذه الفتوى وليدة ظرف فينبغي أن تتغيّر بتغير ذلك الظرف ، فيما إذا تصورنا حكومة عادلة ، فلها بل عليها أن تسترد كلّ أراضي الفتوح وتعتبرها وقفا على كل المسلمين . تؤجر بها الدولة لمن يعمل فيها مقابل جزء من الإنتاج ينفق على مصالح المسلمين . واذن فلا يجوز فيها بيع ولا شراء ولا إرث ومتى وقع فسخ أبدا فهي ملك مؤبد للمسلمين .

يقول الأستاذ **المنتصر الكتاني** في مسألة أرض القوّة :

= معمور غير العنوة فيقطعه ملكاً وامتاعاً .. ومفهوم العنوة أن أرض الصلح لا يقطع معمورها ولا مواتها لا ملكا ولا امتاعاً » الزرقاني ج ٧ ص ٦٦ ط دار الفكر العربي بيروت ١٣٩٨ . فالموقف الرسمي أي المفتى به في مذهب مالك وما اتفق عليه خليل وشارحه من أن الأرض التي فتحت عنوة هي ملك عام للمسلمين إلى يوم القيامة .. وما ورد في المذهب المالكي خلاف ذلك فليس بموقف المالكية المفتى به ..

وأورد الأستاذ علال الفاسي نقلا عن العلامة المجاصي في توازله على أن حيازة الأرض المفتوحة عنوة لا يخوّل أكثر من الانتفاع لحائزها . وان الأغلبية الساحقة من الأراضي المغربية هي ملك للطائفة الإسلامية وعليه فلا يجوز تفويتها بحال . وأن الأقلية وحدها هي ملك للأفراد الذين يمكن لهم أن يتصرفوا فيها تصرّف المالك في ملكه .. كل المعاملات التي وقعت في هذه الأقسام وأصبحت بمقتضاها هذه الأراضي ملكاً للأفراد أو للهيئات تعتبر لاغية لأن هذه الأملاك غير قابلة للتفويت » ويعلق الأستاذ علال على هذه الفتوى بقوله » ان في الرجوع للحقيقة الإسلامية المغربية لافقا عظيما يمكننا من حل مشاكلنا بأنفسنا ووفقاً لما هو في صالح أمتنا وبلادنا » النقد الذاتي ص ٢٣٧ وما بعدها .

(هي كل أرض فتحها المسلمون بالسيف ، وأكثر بلاد المسلمين كذلك لا ما استثنى بفتحه صلحا .. وأرض العنوة هذه لا تباع ولا تشترى ، ولا تورث ولا ترهن ، وهي ملك مشترك دائم بين جميع المسلمين مستمر إلى يوم القيامة من غير مفاضلة بين أحد منهم فيه ولا تميز ، هذا حكمها ، بيد أن المسلمين غلبوا عليها يوما فاحتلها العدو المستعمر ... ثمّ استرجعها المسلمون كأرض شمال افريقيا مثلا مراكش والجزائر وتونس وليبيا ، فتبقى ملكا مشتركا بين المسلمين فقط لا تباع ولا تشترى وتعتبر عقود ملكيتها عقوداً فاسدة ومظالم يجب أن ترفع كالمظالم التي رفعها عمر بن عبد العزيز بين عهدين ظالمين ، ويملك استقلالا فقط السلم والمعاهد بقرار من الدولة مصادق عليه من نواب الأمة ورجال الشورى فيها نستغل مسامحة بين المزارع والدولة على جزء من نتاجها ينفق عليه أو تستأجر لها من يزرعها ويمتها ليست مال الأمة ، وأرباح الأرض تصرفها الدولة في مصالح الأمة الاجتماعية والإدارية والعسكرية وما إليها ... بهذا نزل الوحي على رسول الله فنطق به عن الله قرآنا وعن نفسه سنة ، وبه حكم الخلفاء الراشدون وأجمع عليه الصحابة بعد معارضة قلة ما لبثت أن تلاشت عن تسليم واقتناع ، وبه قضى المجتهدون من التابعين وتابعي التابعين وكثير من أئمة الفتوى ، وإليه ذهب ثلاثة من أصحاب المذاهب الأربعة .

المرجع : الأموال . القسم الأول ص ٥٠ ، ٥١ أورده عنه الدكتور عبدالسلام داود العبادي القسم الأول من كتاب : الملكية في الشريعة

الإسلامية ص ٣٣٥ ط مكتبة الأقصى عمان – الأردن .

الخلاصة : أنّ الشريعة الإسلامية تضع أمام الدولة الإسلامية مجموعة إمكانيات للتصرف في الأرض لا تخرج كلّها عن ربط الانتفاع بالأرض بالعمل فيها ، فيمكن إقرار الملكية الخاصة للأرض مع اشتراط استغلالها من طرف أصحابها أنفسهم، فإن عجزوا سلموها لغيرهم دون مقابل .

ويمكن اعتبار أرضنا هذه أرض فتوحات فكل العقود المعقودة عليها هي عقود لاغية باطلة وعلى وليّ الأمر (الدولة الإسلامية) ممثلة للأمة بالنيابة عن المالك سبحانه أن تستردّ تلك الملكية وتعيد توزيعها... ممّا يضمن منع الاستغلال من ناحية، فلا ينشأ الإقطاع ولا تتفتت الملكيّة بفعل البيع والوصية والميراث فتغدو غير منتجة فتهمل .

ويمكن في توزيع الأرض تطبيق مبدأ من أين لك هذا ؟ فيصادر ما أقطعه الأمراء الظلمة من الملكيات وتعاد إلى أصحابها ..

وكل هذه الحلول تدور حول مبدأ أن ملكية الأرض ملكية انتفاع ولمن يعمل فيها وليس ملكية رقبة .

وأنتم ترون أن في الشريعة الإسلامية من الحلول ما يضمن تخليص بلادنا من ظواهر الاستغلال وتحقيق الرخاء دونما أية حاجة إلى استعارة تشريعات لا تنطلق من ثقافتنا وتاريخنا وبيئتنا .

ولكن هذه الكنوز التشريعية مدفونة في بطون الكتب ولكم هي الحاجة ماسة إلى القيام بدراسة جادة لكل مشكل من مشاكل حياتنا، دراسة تستوعب الثورة التشريعية وتطورها، كما تستوعب الواقع ومشكلاته للانتهاء إلى حلول عملية لاعادة صياغة واقعنا على ضوء تعاليم ديننا.

والله الموفق